مع الفكر المادي

في قضاياه الأساسية

بقلم

دكتور

أحمد عبده عوده الجمل

(١٥ – حولية أصول الدين)

أحمد الله رب العالمين ، وأصلى وأسلم على خير الخلق أجمعين ، محمد الهادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وبعـــد ..

فإن تناول الفكر المادى ، من حيث إنه يتعارض ابتداء مع قضية الإيمان ، يفرضه منطق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى على بصيرة . ذلك المنطق الذى يقوم على دعامة أساسية هى حراسة العقيدة الإسلامية ، وصيانة قضية الإيمان .

والفكر المادى نظام من أنظمة الفكر الفلسفى ، ونسق من أنساقه ، ينتمى إلى الإتجاه الواحدى ، الذى يثق فى أن « أساس العالم واحد ، وأن كل وجود يرجع إلى مادة واحدة ، أو مبدأ واحد .

وعلى ذلك فإن الواحدية هى تلك النظرة إلى العالم ، التى تبحث عن الوحدة فى الواقع وتهتدى إليها ، وبذلك تجعل من التنوع الزاخر للتجربة البشرية مجرد جوانب متعددة لعنصر نهائى واحد ، وقد يتحقق هذا التوحيد على أساس مادة واحدة ، أو ... روح أو ذات واحدة ، وربما على أساس نشاط واحد ، أو عملية واحدة »[1] .

فالمادى هو القائل بالمادة وحدها ، ولفظ الماديين يخص « الفلاسفة الذين لا يعترفون بالوجود إلا للأشياء والأجسام المادية فقط »[2] .

---

(١) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، هنترميد ، ترجمة د / فؤاد زكريا ص ١٩٧ ، ١٩٨ الطبعة الثانية ١٩٧٥ . دار نهضة مصر للطبع والنشر .

(٢) تمهيد للفلسفة ، د / محمود حمدى زقزوق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٩ م .

أما غير المادى فليس بموجود . ومن ثم فإن المفكر المادى ينكر وجود « المجردات وما وراء الطبيعة من غيبيات وروحانيات »(١) .

ويدخل فى ذلك دخولا أوليا : « إنكار وجود الله تعالى ، رب العالمين .. (و) إنكار الأديان، خاصة السماوية منها .. ورفض فكرة الوحى الإلهى .. وإنكار الحقائق الإيمانية »(٢) .

ولعل ذلك يدلنا دلالة مباشرة على أن الفكر المادى هو اتجاه إلحادى ، بكل ماتعنيه كلمة الإلحاد ، حيث تجرى هذه الكلمة فى الإصطلاح المعاصر بمعنى « إنكار وجود رب خالق لهذا الكون ، متصرف فيه ... واعتبار الكون أومادته الأولى أزلية ، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها ، واعتبار ظاهرة الحياة .. من أثر التطور الذاتى فى المادة »(٣) .

وهنا تفترق المادية الفكرية ، عن المادية العلمية ، فـ « المادية كاتجاه علمى ضرورية للحياة ، إذا ما استخدمت فى تفسير عالم الأشياء ، واستنتاج الفروض الصالحة للإنسان .

أما المادية كاتجاه فلسفى ، هو ما جعل المادية أن تكون أعنف اتجاه أمام الدين ، وهى التى تعدت نطاق المادية العلمية ، وراحت تنكر . . .

---

(١) الإسلام والتيارات المعاصرة . دكتوران : عبدالمعطى محمد بيومى أحمد عبد الحميد الشاعر ص ١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٣ .

(٣) كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ، ص ٤٠٩، دار القلم ، دمشق .

وجود الله ، أو كل ما وراء المادية »(١) .

فمادية العلم لا تصادم دائما قضية الإيمان ، فالعالم يمارس تجاربه العلمية ويستنبط قوانين المادة ، وهو فى نفس الوقت مستمسك بعقيدته الدينية، بل إن تجاربه قد تعينه على تعميق إيمانه .

أما المفكر المادى ، فإنه يتحرك من نقطة رفض ما ليس بمـادى ولا بمحسوس ، أى إنكار عالم الغيب . أو عالم ما وراء الطبيعة ، الذى يبنى الإيمان الدينى عليه ، فمن أساسيات الإيمان ، الإيمان بالغيب .

ويعطينا المفكر الإسلامى (وحيد الدين خان) توضيحا لذلك وتأكيدا حيث يقول : « حين اكتشف علماء القرنين الثامن والتاسع عشر أن الكون يسيره قانون العلة والمعلول ، تهافت المفكرون الماديون .

لقد زعموا أن هذا الكشف العلمى بديل لله ، على الرغم من أن العلماء الذين اكتشفوه لم يزعموا ذلك .

فقد قال (نيوتن) : (هذا هو أسلوب الله فى العمل ، فالله يجرى مشيئته فى الكون بواسطة أسباب وعلل) .

ولكن الذين كانوا يريدون صياغة فلسفية جديدة — فى ضوء أحدث الكشوف العلمية — وجدوا أن هذا الكشف يكفى دليلا على إبطال وجود الله ، ومن ثم شيدوا بناء فكريا كاملا .

وهكذا ظهرت إلى حين الوجود تلك النظرية التى تسمى (التفسير الميكانيكى للكون) . . . وأصبح من الحقائق المسلم بها أن جميع وقائع

---

(١) القلق الإنسانى مصادره تياراته علاج الدين له ، د/ محمد ابراهيم الفيومى ص ٢١٤ ، ٢١٥ الطبعة الأولى ١٩٧٥ ، مكتبة الإنجلو المصرية .

الكون تحدث بسبب علل مادية ، دون تدخل خارجى ، وأن الكون كله مربوط فى سلسلة العلة والمعلول »(١) .

ولأن الفكر المادى كذلك ، وجدناه يلتف حول عدة مبادىء وأصول ، تؤلف بين مذاهبه واتجاهاته ، وكل واحد من هذه المبادىء يؤكد الطابع المادى الإلحادى ، لهذا اللون من الفكر ، وقد عالجنا بعض هذه المبادىء فى بحث لنا سابق (٢) .

وهنا نعالج مبادىء ثلاثة تمثل خصائص عتيدة ، ودعائم وطيدة للفكر المادى .

هى : المادة أزلية أبدية — الوجود ينحصر فى المحسوس — وسيلة المعرفة هى الحواس .

وغايتنا الأولى تسليط نظرة نقدية تذهب بهذه المبادىء بددا ، وتنقضها من جذورها نقضا ، كخطوة على طريق حراسة الدين الحق ، والذود عن عقائده ، التى فيها خيرا الدين والدنيا.

المادة أزلية أبدية

هذا المبدأ مثل عقيدة عتيدة من عقائد الفكر المادى عبر تاريخه كله، كما أنه ظل يمثل عقيدة علمية حتى نهايات القرن التاسع عشر الماضى ، فكان العلم على يقين من أن المادة لا تفنى ولا تستحدث .

(١) الدين فى مواجهة العلم ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجعة عبد الحليم عويس ، ص ٣٢ ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، وراجع فيه تفصيلا أكثر ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٢) نشر فى حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية العدد الخامس ١٤٠٥ — ١٩٨٥ م.

وهنا نعثر على أساس علمى لقناعة المادية الفكرية قناعة نهائية بأن المادة أزلية أبدية ، أى لم تخلق من عدم ، ولن تصير إلى فناء .

وفى تناولنا لهذا المبدأ ، سوف نعرض لأمرين أساسيين :

الأول : التحول الذى جد على الروح العلمى منذ أواخر القرن التاسع عشر ، حيث اهتزت معتقدات علمية كانت ذات وضع نهائى فى هذا القرن، وحيث تغيرت النظرة العلمية تغيرا انقلابيا إلى المادة ومفهومها .

الثانى : الإستعانة بنتائج العلم وشهادات العلماء المختصين وتصريحاتهم ، بعد حدوث هذا التحول ، وسوف نصادف تصريحات وأقوالا ، هى فى حقيقتها شهادات صادقة على استحالة مصداقية الزعم المادى الذى بين أيدينا الآن ، وهو كون المادة أزلية أبدية .

ففيما يتعلق بالأمر الأول :

نقول : إن القرن التاسع عشر ، يعد من الوجهة العلمية وثبة واسعة على طريق تقدم العلوم الطبيعية ، بل العلوم كلها بعامة ، ومع ذلك ، تضاعف غرور العلم وسطوة العلماء .

كما أن هذا القرن — تبعا لذلك — يعد الفترة الحاسمة لبروز الإتجاهات المادية الإلحادية ، وانتعاش الفكر المادى ، بناء على معتقدات علمية ، وثق بها العلم ، وحسبها يقينية ونهائية ، لذا أعتبرت « التطورات العلمية التى حدثت فى القرن الماضى (انفجارا معرفيا) ... فى وجه الأساطير الإنسانية .. كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ، ونسفت بمجرد تفجير الذرة »(١) .

(١) الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان، مراجعة وتقديم د/ عبد الصبور شاهين ، ص ٣٢ ، الطبعة السابعة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م المختار الإسلامى .

ووضع العلماء فى القرن التاسع عشر أيديهم على كثير من القوانين العلمية ، وظن العلم أنه يملك مفاتيح كل شىء ، فأضحى « علماء الكيمياء والفيزياء يعتقدون أن سببا واحدا ينتج نتيجة واحدة دائما ... وأية نظرية لو أثبتت نجاحها فى مثال واحد ، فهؤلاء العلماء يؤمنون بأن هذا النجاح يصبح مطردا للأبد ، ولهذا لم يعد هناك أى أختلاف فى العلوم الطبيعية حول قانون التعليل ، والإختلاف الوحيد الذى يوجد ، ينحصر فى دائره المؤمنين بما بعد الطبيعة » (١) .

وكأثر لذلك ، ظهرت المسلمات العلمية ، ومن بينها مسلمة أن الكون خاضع للآلية الميكانيكية ، والتفسير الميكانيكى ، القائم على أن « جميع وقائع الكون تحدث بسبب علل مادية ، دون تدخل خارجى ، وأن الكون كله مربوط فى سلسلة العلة والمعلول ، وكانت هذه هى إحدى مسلمات القرن التاسع عشر » (٢) ، فكان أن داخل العلم الغرور ، والثقة المطلقة ، وكان أن حظيت نتائجه بيقينية نهائية ، لاشائبة فيها لأى احتمال ، واستقر لذلكم فى أذهان المفتونين بالعلم أن العلم له « القدرة على اكتشاف مجهولات الغيب التى لم تكتشف حتى ذلك الحين ، على أساس أن كل موجود خاضع لقوانين علمية ، تتم بحتمية عمياء ، ليست مرسومة مقدما ، وحتميتها لاتقتصر على غايات المستقبل فحسب ، بل تمتد إلى وقائع الماضى أيضا .

وحتمية هذا القوانين ليست راجعة لأمر خارق للطبيعة ، بل هى نابعة من القوانين الطبيعة ذاتها » . (٣)

(١) الدين فى مواجهة العلم ، ص ٣٢.
(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٣) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ، د / محمود عبد الحكيم عثمان ، ص ٤٨٦ ، مطبعة حسان ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية.

ومن ثم عرفت مادية القرن التاسع عشر بأنها مادية العلوم الطبيعة ، وشاع الإعتقاد بحتمية قوانين العلم ، ونهائية النتائج التجريبية ، وإمكانية إيجاد تفسير علمى لكل ظاهرة طبيعية .

ومن هنا « كان العالم يختال بهذا العلم ، الذى هو ثمرة جهود بذلت فى عدة قرون : وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله فى كل مكان ، حتى إن بعض العقول المغرمة بالنظريات كانت تعتقد إمكان تبسيط العلم أكثر مما هو عليه ، بعدم اعتبار شىء غير العلاقات الرياضية بين الظواهر ، فإن هذه الظواهر كانت تتراءى لهم كأنها نواميس عامة يجب أن تخضع لها الطبيعة .

فكان الفيلسوف .. لايسعه إلا الإنحناء أمام هذه النتائج الفخمة ، معترفا بأنه إن عدم اليقين فى البيئة العلمية التى هو فيها ، فمن الممكن الحصول على ذلك اليقين فى مجال العلم المحض .

كيف يعقل أن يشك فى ذلك ، أما كان يرى أن أكثر العلماء كانوا من الوثوق ببراهينهم ، بحيث لاتتطرق أخف الشكوك إليهم » (١) .

وكانت نظرة العلم فى القرن التاسع عشر إلى المادية قائمة على أن المادة لاتخرج عن صور ثلاث : الصلابة ، السيولة ، الغازية . وعلى أنها تحتفظ بحجمها وكتلتها مهما تغير شكلها ، وعلى أنها ذات حجم وكتلة وكثافة ، وعلى أنها تشغل حيزا من الفراغ ، وأنها لاتتداخل ، أى لايجتمع منها جسمان فى حيز واحد ، وأنها لاتفنى ، وأنها مؤلفة من ذرات لاتقبل الإنقسام ، وبإجمال كانت المادة فى علم القرن الماضى كيانا محسوساً لايفنى ولايستحدث . (٢)

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩.
(٢) راجع : حوار بين الفكر المادى والفكر الدينى ، أحمد زكى تفاحة ، ص ١٠٢ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

وقد كان لكل ذلك إنعكاساته القوية على الفكر ، فأضحى فى غالبه فكرا ماديا ، وأضحى هذا الفكر المادى فكرا إلحاديا ، يقف عند حدود المادة فى تصور الوجود ، وعند الحس فى قضية المعرفة ، بل لقب القرن التاسع عشر بعصر سيادة الحس ، وقد ساعد على إستحكام النزعة المادية الحسية فى العلم والفكر فى هذا القرن قصور الفلسفة المثالية عن تقديم حلول لمشاكل الحياة الواقعية ، واضطلع العلم بهذه المهمة ، فحاز ثقة الناس ، وتسلل الفكر المادى من حظيرة العلم ، مستغلا إياه فى بناء فلسفة بديلة عن الفلسفة المثالية ، وعن الدين أيضاً .

إن « العجز فى الفلسفة التقليدية المثالية ، قد مهد لقبول الفلسفة المادية ، التى ترى أزلية المادة ، وتنكر وجود أى شىء وراءها »(٢) . بل تقدمت الفلسفة المادية لتحتل الصدارة بعد أن كانت فيما قبل القرن التاسع عشر لاتحرز إلا دورا ثانويا ، فصارت فلسفة العصر السائدة ، بل حظيت بإسهام البيئات الأوروبية الرئيسية فى دعمها وتأكيدها ، ومن قبل كانت مطاردة فى بعض من هذه البيئات ، فقد اتجهت ألمانيا فى القرن الثامن عشر إتجاها معارضا للمادية ، لكنها تقدمت فى القرن التاسع عشر ، لتسهم فى دفع التيار المادى ، ويكفيها أنها قدمت لنا الممثلين الكبار لمادية هذا القرن ، من أمثال : (إرنست هيكل) ، فيلسوف التطور الشهير .

إن المادية فى القرن التاسع عشر . يمكن أن يطلق عليها — بصفة عامة — « إسم مادية العلوم الطبيعية » لأنها كانت تستند على هذه العلوم ، التى كانت قد تطورت تطورا كبيراً .

وهكذا كانت مادية القرن التاسع عشر ، تعتمد إما على نتائج علم الطبيعة والكيمياء ، أو على نتائج علم الأحياء .

---

(١) كواشف زيوف ... ، ص ٧٠ ، وراجع تفصيلا أكثر فى الصفحات التالية .

وفى إطار مادية القرن التاسع عشر ، نجد إتجاهين مختلفين وهما : « المذهب المادى الميكانيكى ، والمذهب المادى الديناميكى ، القائل بالطاقة »(١) .

الأول : يقول بأن الكون تسيره الحتمية العلمية ، ويذهب أصحابه إلى الإقرار بنظريات « مطابقة للميكانيكية الفيزيائية ، ومن ذلك مثلا قولهم بأن نسبة الأفكار إلى المخ ، مثل نسبة المرارة للكبد ، أو البول للكليتين »(٢) .

الثانى : إعتمد على نتائج علم الأحياء ، وفسر حقائق الحياة تفسيرا ماديا صرفا ، شمل العالم والإنسان ، وتمثل هذا الإتجاه أكثرما تمثل فى مذهب التطور .

تلك كانت وضعية العلم فى القرن التاسع عشر . يقينية صارمة ، مع مادية خالصة . وقد دار الفكر المادى فى فلك العلم . واعتمد عليه ، فكانت أخطر مراحل هذا الفكر بإطلاق .

فهل دام الحال بالعلم على ما رأينا ؟

لقد تبدل الحال — منذ أواخر القرن التاسع عشر — ودخل العلم مرحلة جديدة ، تأكدت ملامحها منذ بداية القرن العشرين ، حيث كان هذا القرن فاتحة لكثير من الحقائق الجديدة فى دنيا العلم الحديث ، والتى كادت أن تبطل تماما التفسير الميكانيكى للكون .

---

(١) تمهيد للفلسفة ، د/محمود حمدى زقزوق ، ص١٩٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م .

(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

وعلى سبيل المثال ، فإن الراديوم عنصر مشع ... وأليكتروناته تتحول إلى حطام تلقائياً بعمل الطبيعة .

وقد أجرى العلماء تجارب لاحصر لها لكى يصلوا إلى سبب إشعاع الراديوم ، ولكن كل التجارب انتهت إلى الإخفاق . ونحن نجهل حتى اليوم تحطم أليكترون ما وخروجه عن نظامه النووى فى الراديوم .

وأيضاً . فنحن جميعاً نشاهد المغناطيس وهو يشد نحوه الحديد ، وقد أقام العلماء نظريات كثيرة لشرح هذه الظاهرة ، ولكن أحدهم كتب يعلق على هذه النظريات قائلا : (إننا لا نعرف لماذا يشد المغناطيس الحديد وحده ، ربما لأن الله أصدر إلى المغناطيس أمرا بذلك) .

والأمر لا ينتهى عند الراديوم والمغناطيس . بل يتعداهما إلى الأشياء التى أشير إليها فى الماضى على أنها السبب فى حدوث واقعة معينة ، فإن التحليل الدقيق قد دل على أن ذلك لم يكن إلا دراسة سطحية للوقائع .

فالحقيقة أننا نجهل تماما سبب حتمية حدوث شىء ما ، على منوال معين ، حتى أننا لا نعرف لماذا ننام حين نستلقى على السرير فى الليل .

لقد اعترفوا الآن — بعد طول جدال — بأن قانون التعليل ليس حقيقة مطلقة ، بالمعنى الذى افترضوه فى القرن التاسع عشر .

والآن لقد عاد الباحثون إلى النقطة التى بدأوا منها مسيرتهم ، إلى أن نظام العالم لا يخضع لقانون العلة والمعلول ، الناتج عن الصدفة المحضة ، وأن هناك عقلاذا وعى ، يدبر شئون العالم بالإرادة »[1] .

(١) الدين فى مواجهة العلم ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

هكذا نلمس عمق التحول الذى طرأ على الموقف العلمى منذ نهايات القرن الماضى ، حيث وضح أن التفسير العلى الآلى ليس هو التفسير الصحيح للكون ، وأن اليقينية التى كانت شعار العلم اهتزت من أساسها ، وأن المادة قابلة لأن تتبدد ، وأن كثيراً من التفسيرات العلمية لا تتعدى الوصف الظاهرى فقط .

وقد دفع ذلك بالعلماء فى القرن الحالى إلى تغيير نظرتهم إلى « المادة وإلى حتمية القوانين العلمية ، ولم يستطع العلم أن يرسم نظاماً متفقاً عليه ليحل محل الدين فى توجيه الإنسان ، واضطرت الأحداث الخارقة للطبيعة كثيراً من العلماء لتغيير نظرتهم إلى وسيلة المعرفة الإنسانية ، واضطروا أن يسلموا بموجودات غير محسوسة »[1] .

إن العلم فى تطوراته المعاصرة ، قد تخلى عن كثير من عقائده فى المادة وقوانينها ، ومن أخص هذه العقائد عدم فناء المادة : وأنها ذات كتلة وحجم وكثافة ، وأن قوانينها حتمية صارمة ، وكل ذلك هو الذى أغرى الماديين بمزيد من التشبث بأزلية وأبدية المادة والكون المادى .

إن « مفاهيم العلوم الطبيعية بدأت تهتز فى القرن العشرين وبدأ المرء يدرك مدى البساطة أو السذاجة التى كانت تؤخذ بها هذه المفاهيم .

فقد أدى تقدم علم الطبيعة إلى ما نطلق عليه إسم — أزمة مبدأ الحتمية — . . .

(و) تبين أن القوانين الميكانيكية فى علم الطبيعة التقليدى

(١) الفكر المادى الحديث ... ، ص ٤٨٦ .

لا تنطبق على الظواهر إلا باعتبار أنها مركبات تامة التكوين ، فى حين أنها لا تصدق بالنسبة للعناصر الأولية ، التى تتركب منها الظواهر، أجساما كانت أم سوائل أم غازات .

... ولم تعد الذرة فى الكيمياء ، وفى علم الطبيعة تعتبر كرة صغيرة لا تنقسم ، فقد تبين أنها شىء معقد إلى أقصى حد ...

وقد تغير مفهوم المادة تبعاً لتقدم علم الطبيعة ، فقد اقترب مفهوم المادة من مفهوم القوة ، بعد الإبتعاد عن الأخذ بصلابة المادة وثباتها ، والتحديد المكانى الدقيق لها .

ويبدو أن المرء يكاد أن يكون فى استطاعته أن يقول : إن العناصر الأساسية للمادة لم تعد مادية .

وتتضمن نظرية الكميات ... التى وصفها (ماكس بلانك) مبدأ ثنائياً ... »[1] .

وتكشفت للعلم فى المادة نواحى غيبية ، لا يصدق عليهـــا أى من خصائص المادة المحسوسة ، وبذا ولد المفهوم الثنائى للمادة .

لقد كانت العقيدة العلمية ، حتى أواخر القرن الماضى . تقف عند حدود القول بالذرة ، أو ذرية المادة ، التى ورثتها من علم الطبيعة التقليدى، ومن الفلسفة القديمة ، وعلى الأخص فلسفة ديمقريطس ، واتخذ المفهوم الذرى للمادة أساس التفسير الوحيد واليقينى للمادة ، واتخذ حتى أساسا لما لا يظهر مباشرة بصورة مادية ، أى أن المبدأ الذرى « لا يقتصر على المادة، فالكهرباء بدورها ينبغى أن ينظر إليها على أنها مؤلفة من ذرات.

---

(١) تمهيد للفلسفة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢.

وقد اكتشفت ذرات الكهرباء حوالى نهاية القرن التاسع عشر وسميت (أليكترونات) .

وقد استمرت المسيرة الظافرة لفكرة الذرة فى عدد كبير من مجالات العلم ، إلا أنها توقفت فى مجال واحد هام ، وهو (الضوء) ...

وقرب نهاية القرن التاسع عشر كانت الفيزياء قد وصلت إلى مرحلة تبدو نهائية ، فقد بدا أن التركيب النهائى للضوء والمادة — وهما أعظم مظهرين للواقع الفيزيائى — أصبح معروفا .

فالضوء مركب من موجات ، والمادة من ذرات »[1] .

أى أن المادة ذات بناء واحدى ، هو الذرات ، والضوء ذو بناء واحدى هو الموجات .

ثم ظهر التفسير التركيبى ، أو الثنائى للمادة ، وقرر أحد علماء الطبيعة الفرنسيين ، وهو (لوى دى برولبى) ، « أن كل جزىء صغير من المادة مقترن بموجة ، وبذا يكون كشف (برولبى) ممثلا لبداية عهد التفسير المزدوج ، الذى تأكد منذ ذلك الحين ، بوصفه نتيجة محتومة لطبيعة التركيبية للمادة » .[1]

وفى الربع الثانى من القرن العشرين، ظهرت اكتشافات جديدة أخرى أدت إلى نتائج خطيرة للغاية ، وأمكن فى ضوئها ، وضع فيزياء جديدة للمادة ، ومن أولى هذه النتائج . أنه « إذا كانت المادة فى القرن التاسع

---

(١) الفكر المادى الحديث ... ، ص ٤٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩٥ .

عشر — — فى نظر علماء الطبيعة — لاتفنى، فقد تغير أمرها بعد التجارب العملية فى القرن العشرين»(٢).

وفى إثر ذلك تراجع الجمهور من العلماء عن القول بأزلية وأبدية المادة — على ماسنعرف قريباً — وأمكن بذلك التغلب على المذهب المادى فى العلم. أو على الأقل يمكن القول بأن المذهب المادى الحديث الذى انتشر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قد بدأ يتراجع فى عصرنا(٢) الحاضر، ومنذ بداية هـذا القرن العشرين، وفى ضوء ذلك يمكن القول :

«إن الكشوف الجديدة لتركيب الذرة وإشعاعاتها. هدمت قواعد الفلسفة المادية التى كانت معروفة فى القرن التاسع عشر.

أجل لقد فقدت المادة اليوم كتلتها ووزنها وحجمها وحيزها ومعظم صفاتها الأساسية، فهل بقى لها بعدها شىء ؟

... بقى لها أهم شىء لولاه لفنيت وأصبحت فى غمار العدم، بقى لها جوهرها الذى به وجودها، فإن آخر ماوصل إليه علماء الطبيعة اليوم عن طبيعة المادة هو : أن هذه المادة المحسوسة ليست هى المادة التى كان يقول بها العلم فى القرن التاسع عشر، بل إنهـا اليوم صورة لطاقات غير محسوسة.

إنها حية لما فيها من التحام وعمليات تحليلية وتركيبية وكهارب... لاتستقر، إنها تولد وتنمو وتفقد حياتها وتموت.

(١) المصدر نفسه، ص ٤٩٧، وراجع ص ٤٩٨ ومابعدها، حيث يؤكد الباحث على اهتزاز مبدأ الحتمية، وبقاء المادة دون فناء.

(٢) تمهيد للفلسفة، ص ٢١٤.

إن فى قلبها ... شيئاً غير مادى، أى بها الصورة والقوة، شيئا له إرادته وحياته. هذا الشىء هو جوهر الوجود وحقيقته

هذه هى أحدث النظريات فى تركيب الوجود، أو أحدث ماوصل إليه علم الطبيعة فى خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة»(١).

هذا عن الأمر الأول من الأمرين اللذين أردنا وزن فكرة أزلية وأبدية المادية بهما.

وقد بان لنا منه أن الفكر المادى قد فقد مبرراته العلمية، فيما يتعلق بطبيعة المادة، وحتمية قوانينها، وكونها أزلية أبدية، وأن مادية العلم المخرقة، وغروره المستحكم اللذين كان عليهما فى القرن التاسع عشر، قد تخفف منهما كثيرا. إن لم نقل قد تخلص منهما نهائيا، بفعل التطورات التى جدت على الحركة العلمية فى القرن العشرين. وقد توفرت لها إمكانات أكثر. وجهود أكبر.

على أن فى تناول الأمر الثانى. وهو شهادات العلم والعلماء بازاء أزلية وأبدية المادة، خير شاهد على صدق هذا التحول العلمى من جهة، وانهيار فكرة الأزلية والأبدية من جهة أخرى. بما ينفسح معه المجال القول بأن الكون المادى مخلوق، ومخلوق لخالق عظيم حكيم

أما فيما يتعلق بالأمر الثانى :

وهو التعرف على شهادات العلم وتصريحات العلماء، فى قضية أزلية وأبدية المادة، فإننا واجدون من ذلك الكثير والكثير. ولكن المقام لايسمح بهذا الكثير، فلنقتطف مايفى هنا بالغرض.

(١) حوار بين الفكر المادى والفكر الدينى، ص ١٠٢، ١٠٣.

هنالك القانون الذى نسميه (قانون الطاقة المتاحة) أو (ضابط التغير) يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً. فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حرارى) إلى (عدم حرارى)، والعكس غير ممكن، وهو أن تنتقل دائماً هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) إلى (وجود حرارى أكثر).

فإن ضابط التغير هو التناسب بين (الطاقة المتاحة)، و (الطاقة غير المتاحة).

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام، فإن (عدم كفاءة الكون) يزداد يوماً بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات.

وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل). وسيترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية، وتنتهى — تلقائيا — مع هذه النتيجة (الحياة).

وإنطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية وأن الحياة قائمة، يثبت لدينا قطعاً أن الكون ليس بأزلى، إذ لو كان أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء على هذا القانون، ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة». (١)

تلك شهادة حق، يعلنها العلم من خلال واحد من قوانينه الثابتة، هو قانون الطاقة المتاحة، والذى يعرف كذلك بـ (القانون الثانى للحرارة الديناميكية).

إن هذا القانون يؤكد بطريق مباشر على رفض أن يكون الكون

(١) الإسلام يتحدى، ص ٧٤.

أزليا أبديا، بل هو كون محدود، على معنى أنه وجد منذ وقت معين، وسيستمر إلى وقت معين.

ويصرح العالم الأمريكى، الإختصاصى فى علم الحيوان، وهو (إدوارد لوثر كسيل)، فيقول: «(وهكذا أثبتت البحوث العلمية — دون قصد — أن لهذا الكون بداية)، فأثبتت تلقائيا وجود الله، لأن كل شىء ذى بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته، ولابد أن يحتاج إلى المحرك الأول، الخالق الإله.

وقد قال نفس الكلام (السير جيمس): (تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها، لأنه لو حدث شىء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض، حتى نفكر فيها.

إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لابد لها من بداية، ولابد أنه قد حدثت عملية فى الكون يمكن أن نسميها (خلقا فى وقت ما)، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا)». (١)

فالقرار العلمى المعاصر، يثق فى حدوث الكون المادى عن عدم، وهو صائر إلى عدم، وفى ضوء هذا القرار النهائى، يهتز مبدأ أزلية الكون ويتداعى، أمام نتائج العلم الباهرة، وإثباتاته الوافرة، ومنها — فوق ما ذكرنا — «فناء كثير من المواد، وخصوصا المواد ذات الطاقة الإشعاعية (كالراديوم والأورانيوم)، حيث ثبت أن ذرات هاتين المادتين تتحطم بطريقة طبيعية.

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال والفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة.

(١) المصدر نفسه، ص ٧٤، ٧٥.

وعلى ذلك ، فالمادة لا يمكن أن تكون أبدية ، وبالتالى يستحيل أن تكون أزلية قديمة .

وتدل الشواهد من الكيمياء أيضاً ، وغيرها من علوم الجيولوجيا أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية .

وقد قام العلم بتحديد الزمان الذى نشأت فيه المادة ، ووجدت من العدم »(١) .

ولمزيد من الدعم لذلك والتأكيد ، فقد جاء على لسان العلم والعلماء ، أن « شواهد طبيعية كثيرة أثبتت أن الكون لم يكن موجودا منذ الأزل ، وأن له عمرا محدودا .

وعلى سبيل المثال : نجد علم الفلك يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية ، تتباعد بسرعة مدهشة ، بعضها عن بعض .

ويمكن أن تفسر هذه الحالة تفسيراً جيداً ، إذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ، ثم بدأت الحركة والحرارة ، ويقدر العلماء أن الكون قد وجد نتيجة لإنفجار فوق العادة ، وقع منذ ٥٠،٠٠٠و٠٠٠و٠٠٠ سنة .

فالإيمان بهذا الكشف العلمى ، وهو أن للكون عمرا محدودا ، يتعارض مع إنكار وجوده (أى الخالق) .

(١) العقيدة الاسلامية رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة ، د/ سعد الدين السيد صالح ، الجزء الأول الالهيات ، ص ١١٤ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ — ١٩٨٣ ، دار الهدى للطباعة .

ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع إنكار لوجود خالقه ، كمثل من يزعم أن (تاج محل) قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بنى فى القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن موجودا منذ الأزل »(١) .

ويشهد بصحة ذلك أحد أساتذة العلوم الطبيعية الحديثين ، هو العالم الأمريكى (إيرفنج وليام نوبلوتشى) ، حيث يقول : « فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة .

وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون ليس له بداية ، أو أبدى ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغير »(٢) .

ويصرح عالم آخر ، هو (دونالد روبرت كار) أستاذ الكيمياء الجيولوجية ، بأن دراسته للكيمياء الجيولوجية قد قادته إلى الإعتقاد بوجود خالق للكون ، وأنه أمكن بهذه الدراسة ، تحديد الوقت الذى بدأ فيه الكون ، « فقد أمكن — باستخدام العلاقات الإشعاعية — أن نحصل على صورة شبه كمية عن تاريخ الأرض ، ويستخدم فى الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة من الدقة ، ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حد كبير ، وهى تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ خمسة بلايين سنة .

(١) الإسلام يتحدى ، ص ٧٥ ، وتاج محل الوارد بالنص هو معلم من معالم الهند الأثرية .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة من العلماء الأمريكيين ، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان ص ٥٣ ، مؤسسة الحلبى للنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .

وعلى ذلك، فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا . ولو كان كذلك لما بقيت أية عناصر إشعاعية ، ويتفق هذا الرأى مع القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية .

أما الرأى الذى يقول بأن هذا الكون دورى ، أى أنه ينكمش ثم يتمدد ، ثم يعود فينكمش من جديد ... إلخ ، فإنه رأى لم يقم على صحته دليل ، ولا يمكن أن يعتبر رأياً علميا ، بل محض تخمين .

ومن ذلك نرى أن ... للكون بداية . . وهـو رأى تؤيده قوانين الديناميكا الحرارية ، والأدلة الفلكية والجيولوجية»[1] .

وقد ذكر العالم الطبيعى (جورج بوهن) ، فى رسالة له بعنوان (تطور المادة) قوله : « (إن عقيدة عدم تلاشى المادة ، إحدى العقائد القليلة التى أخذها العلم العصرى عن العلم القديم بدون أن يغير فيها شيئا ... (ولم) تكابد هذه العقيدة أى تزعزع ، ولم يفكر أحد فى أن يجادل فيها ، فاستحق الدكتور (جوستاف لوبون) لقبا من المجد ، لأنه أول من هاجم هذه النظرية ... وتوصل إلى إسقاطها فى سنين معدودة) .

يقول (جوستاف لوبون) ، فى أثناء محاضرته التى ألقاها ١٩٠٧ م ، عن اكتشافه الذى أشار إليه (جورج بوهن): إن (علم الأمس كان مؤسساً على أبدية المادة ، لكن علم اليوم سيتأسس على قبولها للفناء ، وسيكون غرضه الأول إيجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها . .)»[2] .

على هذا النحو ينظر العلم المعاصر إلى قضية أزلية وأبدية المادة التى

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

(٢) الفكر المادى الحديث ...، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، وهو آخذ عن : على أطلال المذهب المادى، محمد فريد وجدى ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

يستمسك بها الفكر المادى الإلحادى على مدى تاريخه ، واختلاف ألوانه .

وقد أفادتنا نظرة العلم إنهيار التصور المادى للوجود ، لما أطاح بهذا الزعم ، الذى انتشى به الفكر المادى ، ودعم به مقولة الإلحاد .

ومع ذلك يتأكد التصور الدينى فى صورته الصحيحة ، القائم على أن الكون هو خلق الله ، وأنه من العدم جاء ، وإلى العدم يصير .

على أنه لا يفوتنا هنا ، أن نعرض لحديث العقل فى تلك القضية ، وهذا الحديث فى وجهته السليمة ، ينطق ببطلان أن تكون المادة أزلية أبدية . كما نطق بذلك من قبل العلم المنصف .

فماذا عساه يسعفنا به العقل ، فى هذا الصدد ؟

العقل السليم يقرر أن « ما هو أزلى هو واجب الوجود عقلا لذاته ، وما هو واجب الوجود لذاته لا يمكن أن يكون قابلا للتغير .

لأن قابلية التغير إمكان ، والإمكان نقيض الوجوب ... والنقيضان لا يجتمعان فى شىء واحد ، فى وقت واحد بحال من الأحوال .

ولأن التغير هو إنعدام للصفات الأولى ، وحدوث للصفات الجديدة ، والذى يقبل الإنعدام والحدوث لا يكون واجب الوجود ، بل هو ممكن الوجود وأصله العدم ، وهذا مناقض للأزلية .

ولما كانت ذات الموجود ملازمة باستمرار لصفاته ، فإن الحدوث فى الصفات . . . يستلزم حدوث الذات ، وهذا مناقض لأصل إدعاء أزلية الكون ، الذى هو ملازم للتغير بالمشاهدة»[1] .

(١) نواشف زيوف ... ، ص ٥١٩ ، وراجع تفاصيل أكثر فى ص ٥٢٢ ومابعدها . وراجع أيضا : الثقافة الإسلامية المستوى الأول ، عبد الرحمن حبنكة ومحمد الغزالى ، ص ٤٩ ومابعدها ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

الموجود منحصر فى المحسوس

هذا التعبير يشير إلى أصل أصيل فى الفكر المادى الإلحادى ، الذى يثق عن يقين فى أن الوجود على الحقيقة هو المحسوس الذى تناله الحواس مباشرة أو بالوسائل المادية التى يتعامل بها العلم مع المادة .

وأصل كهذا من شأنه رفض ماوراء المادة ، أو عالم الغيب رفضا قاطعا ، وهو ذلك القسم من الوجود الذى يتصل إتصالا أساسيا بقوام الإيمان الدينى .

وهذا الأصل هو قدر مشترك بين قديم الفكر المادى وحديثه ومعاصره على السواء ، فالماديون بعامة يعتقدون «أن المادة حقائق ملموسة محسوسة وليست فروضا عما وراء الحس ، ذلك العالم الذى لا يقوم عليه أى دليل»[1] .

ودلالة ذلك ، أن الماديين ربطوا بين حسية المعرفة ، وحسية الوجود ، من حيث إنهم حصروا وسيلة المعرفة فى الحواس ، لما حصروا الوجود فى المحسوس . ومن ثم يطلق على الماديين فى مجال المعرفة (الحسيون) ، بينما هم فى مجال البحث فى الوجود (الماديون) .

وعليه ، فإن أى موضوع أو شىء لا يستطاع إخضاعه للتجربة الحسية فليس له حظ من الوجود ، بل ليست له قابلية أن يعرف .

والماديون لا يسلمون بمعرفة تعلو على الحس ، أى لا تأتى بداية عن طريق الحواس . فليس هناك معرفة عقلية خالصة بالمعنى الذى يقول به العقليون ، لأن العقل عندهم مادة ، ولأن أى معرفة يحصلها ، لابد أن تأتيه بداية من قبل الحس .

والحقائق الغيبية ، بل الوجود اللامادى لا ينطبق عليه قانون المعرفة

---

(١) الفكر المادى الحديث ...، ص١٨ .

عند الماديين ، فلا هو مادة ، ولا هو مما يدرك بالحس وأدوات التجربة ، فكان حريا عندهم بالرفض والانكار .

هذه هى الصورة العامة لهذا الأصل ، وسبيلنا الآن أن نتعرف على قيمته من الوجهتين الفلسفية والعلمية ، فنقول :

لأن دعائم الفكر المادى مترابطة ويلزم بعضها عن بعض ، فإن كثيرا مما يناقش به إحداها يدخل فى مناقشة غيرها على وجه ما .

ومن ثم فإن مناقشتنا التى فندنا بها أزلية وأبدية المادة ذات صلة بمناقشة هذا الزعم الذى بين أيدينا الآن . . ذلك أنه إذا لم تكن المادة أزلية أبدية . فهى مخلوقة . ولا يجوز من الناحيتين العقلية والعلمية ، أن تكون بلا خالق ، ولا أن يكون خالقها المصادفة ، ولا أن تكون هى خالقة نفسها . وإذن فلابد من خالق للمادة خارج عنها ، وعن قوانينها ، وفى هذه الحالة تتأكد الثنائية الوجودية ، المتناقضة بداية مع الواحدية المادية ، التى تحصر الوجود فى المحسوس فقط .

ثم إننا قد فصلنا القول فى بطلان زعم الماديين أن الوجود فى أصله وتنوعاته مادى ، وأن المادة خالقة لا مخلوقة . وما يتصل بذلك من إدعاء المصادفة فى عملية الخلق[1] .

ثم إن مناقشتنا التى سنقدمها بعد لزعمهم إنحصار وسيلة المعرفة فى الحواس ، تسهم إسهاما جديا فى دحض زعمهم إنحصار الموجود فى المحسوس .

ومع كل ذلك ، يمكننا هنا أن نقف مع هذا الزعم وقفة خاصة ، تضيف المزيد من تهافته وضعفه وبطلانه ، بعد وزنه بميزانى الفكر والعلم .

---

(١) راجع : حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية ، العدد الخامس ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢٩٥ وما بعدها ، دار الطباعة المحمدية .

فى ميزان الفكر :

يبدو هذا الزعم خفيفاً وهشا، ذلك أن الوجود — فى أخص صفاته — هو ما يقابل العدم ، « فيكفى أن ينتفى العدم ليتحقق الوجود ، وعلى هذا فإذا انتفى العدم ، فلا يلزم أن يكون الموجود متجسما ، يدرك بالحواس ، لأن القوام الكثيف ليس باللازم لإثبات المادة ذاتها .

لأن الأجسام المادية تنتهى إلى ذرات ، ثم إلى إشعاع ، والإشعاع معنى أبسط من الحركة ، فنحن لا نعرف الوسط الذى يتحرك فيه الإشعاع إلا على سبيل الفرض من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا نبصر كل أشعاع بالعين المجردة .

فإذا كان الوجود المادى لا يستلزم التجسيم ، فوجود غير المادى لا يستلزم التجسيم من باب أولى .

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن الوجود أقرب إلى طبيعة المعقولات منه إلى طبيعة المحسوسات .

ومهما يكن من الأمر ، فعندما يعلم الوجود ينتفى العدم ، ولا يستلزم إنتفاء العدم ، أن يلتبس هذا العلم بكثافة المادة »[1] .

الوجود إذن من حيث هو يقابل العدم . ومن ثم فهو عام ، ينتظم الوجود المادى ، والوجود الغير مادى ، ولا ينحصر فى المادى والمحسوس فقط .

ومع ذلك ، فإن الوجود لا ينبغى أن يربط بوسيلة المعرفة ، حتى يقال:

(١) الفكر المادى الحديث ... ، ص ٥٠٨ .

إن الموجود هو المحسوس ، بناء على أن الوجود المادى يدرك بالحس .

بل إن الوجود فى ذاته يضاد العدم ، وحيث هو كذلك ، فيلزم التسليم عقلا بموجودات وراء المحسوس ، وبوسائل للمعرفة وراء الحس .

يدلنا على ذلك أن « الحواس كلها لم تكن إلا محاولة مترقية لإدراك ما فى الوجود ، ولم تقف هذه المحاولة ، ولا هى لما يقبل الوقوف ... إذ وقوفها يستلزم مانعاً يعوقها أن تزداد كما ازدادت فيما مضى ، وأن تترقى كما ترقت فى طبقات المخلوقات ، وليس هذا المانع بالمعروف ، فما لاشك فيه أن الكون أعم من الوعى الإنسانى على إختلاف درجاته ، وأن الوعى الإنسانى كله أعم من هذا الوعى الظاهر ، الذى تترجم عنه الحواس ، ويدخل أحيانا فى نطاق المعقولات »[1] .

ومن هنا يكون من الوجود مالا تناله الحواس ، ويقع فى دائرة وسيلة أخرى راقية ، بل إن الحواس ، وهى تدرك المحسوس ، لا تصل إلا إلى المظهر الخارجى فقط « للحقيقة الواقعة لأن التجربة ليست هى الحقيقة نفسها »[2] ، والذى يحقق إرتباط الحقيقة الواقعة بالتجربة هو الإستنباط العقلى .

ومفاد ذلك « أن الفاعلية العقلية تضطلع بدور حاسم فى تحصيل الحقيقة . الأمر الذى يبطل معه قصر المعرفة على الحواس ، وبالتالى قصر الموجود على المحسوس .

(١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢) الدين فى مواجهة العلم ، ص ١٨ .

« إن العقل الحديث لايحصر دائرة العلم فى تلك الوقائع التى يمكننا تجربتها مباشرة ، وإنما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة ، يمكنها أيضاً أن تصبح حقيقة علمية ، بنفس درجة الحقائق العلمية التى نتمكن من مشاهدتها مباشرة »[١] .

وذلك يؤدى إلى أن ربط الموجود بالحس والمحسوس ، هو إجراء قاصر . وإن صح فإنما يصح فى قسم من الوجود ، وليس فى كل الوجود ، وبعبارة أخرى ، فإن هذا الربط هو جزء من الحقيقة ، وليس كل الحقيقة ، لأنه يتعلق « بجانب واحد فقط من جوانب الحقيقة الواقعة . وذلك هو الجانب المادى »[٢] .

وهذا الجانب المادى لا يعنى فى الحقيقة إلا الظاهر من الوجود ، لأن الحواس لا يمكنها النفاذ إلى ما وراء هـذا الظاهر ، وآيته : أن حياة الإنسان مثلا تقوم على التنفس ، ولكن حياة الإنسان ليست هواء ، على حد تعبير الفيلسوف الإنجليزى (ليبنتز)[٣] .

فالوجود مشتمل على عالم وراء الخبرة الحسية ، سبيله « تلك الخبرات التى تشير — فى مقابل عالم المادة — إلى عالم داخلى ، هو على نحو مختلف تماماً ، وهذا يتضح بنوع خاص عن طريق مثال الوعى الذاتى »[٤] ، الذى يتجاوز حدود المعروفة إلى نوع من اليقين الباطن ، المنقاد إلى الإقرار بنوع من الوجود مغيب عن المادة والماديات .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
(٢) تمهيد للفلسفة ، ص ٢٠٧ .
(٣) راجع المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

والمحصلة البادية من هذا النقاش الفكرى لذهاب الماديين إلى حصر الموجود فى المحسوس ، هى أن الوجود أعم من المحسوس ، وأكبر من أن يقتصر على المادة ، ضرورة أن الخبر الإنسانية تستوعب الوجود فى مظهره المادى ، وفى عمقه غير المادى . وضرورة أن التجربة كما تكون حسية مباشرة ، تكون منطقية غير مباشرة ، ومن يرفض ذلك . عليه أن يرفض حقيقة إنسانية وتجريبية ، لا يختلف عليها ، أو يخالف فيها إلا من كان فى قلبه نكتة سوداء أعمته عن بلوغ الحقيقة الواضحة .

أما فى ميزان العلم :

فإن أمر خفة هذا الزعم ، يبد وأكثر وضوحا منه فى ميزان الفلسفة ، فالعلم الحديث يكشف لنا عن ما يمكن أن يسمى بـ (غيبيات المادة) ، على معنى أن المادة لم تعد هى ذلك الكيان المحسوس ، الذى يقع فى دائرة الحواس ، بل هى مشتملة على مغيبات لا يستطاع إدماجها فى مفهوم المادة التقليدى ، وبذا أفصحت المادة ذاتها عن ذلك القسم من الوجود الذى لا يناله الحس ، ويات العلم على يقين من الثنائية المادية ، وعلى الإقرار بنوع من الوجود يعلو فوق الحس ، ويدخل فى نطاق وسائل أخرى للمعرفة .

ومحصلة كهذه ، تُرى إلى أى حد يغالى الزاعمون الأحادية المادية ، فى الوقوف عند المحسوس ، وفى الجمود على الحس دون سواه .

فالوجود المادى ذاته شاهد على الوجود اللامادى ، وفى ذلك أبلغ الرد وأقواه ، ويصير منطقيا القول بأن المادة لا تعدو أن تكون إحدى صور الوجود ، لا كل صور الوجود .

ولتفصيل ذلك نقول :

« لقد تغير مفهوم المادة تبعا لتقدم علم الطبيعة ، فقد اقترب مفهوم المادة من مفهوم القوة ، بعد الإبتعاد عن الأخذ بصلابة المادة وثباتها ، والتحديد المكانى الدقيق لها ، ويبدو أن المرء يكاد أن يكون فى إستطاعته أن يقول : إن العناصر الأساسية للمادة لم تعد مادية »[1]، وهذا ما أكدنا عليه سابقا ، كما أكدنا على أن وضع العلوم الطبيعية فى قرننا الحالى تغير عنه فيما مضى ، وأصبحت تلك العلوم تقترب من الإعتراف بأن المادة نفسها قد تخرج عن نطاق الحس ، « وبهذا يبطل الزعم القائل : إن الوجود الحقيقى هو المادة .

وقد دعم العلم الحديث هذه القضية . بأن وضع العلماء عدة حقائق لامحسوسة يفسرون بها كثيراً من ظواهر الكون ، كالجاذبية ، والمغناطيسية ، والكهرباء .

فهل للماديين بعد هذا وجه لقول بأن الوجود هو الموجود المحسوس فقط ، دون غيره من أنواع الوجود ، أووجه للقول بأن المحسوس فقط هو الموجود »[2] .

---

(١) تمهيد للفلسفة ، ص ٢١١ .

(٢) الماركسية فى مواجهة الدين حقائق ووثائق ، د/ عبد المعطى بيومى، ص٢٩ ، ٣٠ . ونلفت هنا إلى أن ماذكره الباحث خاصا بالجاذبية والمغناطيسية والكهربية ، قد نطق به العلم والعلماء .

ففى الجاذبية ، يقول (ادوارد. ج . هيوى):«(إن قانون الجاذبيةمن أهم قوانين الطبيعة ، رغم أن الجاذبية نفسها مازالت لغزا عميقامجهولا)». نقلا عن : فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم ، د/ يحى =

إن العلم قد راجع نفسه ، لما وجد أن المادة لاتنهض — من وجهة النظر العلمية — لتفسير الوجود ، وأن قوانينها الحسية هى القول الفصل ذلك أن « مجال العلم التجريبى يتعلق بالمادة ، والمادة جزء يسير فى هذا الكون المحيط .

ومن ذلك يتضح أن النتائج التى يتوصل إليها هى قضايا جزئية ، لأنها تتعلق بالمادة ، وإن كانت — فى الواقع — قضايا عامة تتعلق بأنواع المواد المختلفة فى مجالها المحدود .

ولذلك كانت لدينا قضايا خاصة بالطبيعة ، وأخرى بالكيمياء ، ورابعة بالتشريح ، وهكذا الحال فى سائر العلوم التى تخضع للبحث التجريبى »[1] .

=هاشم فرغل . ص ١٢٤ . وهو ناقل عن : كيف تدور عجلة الحياة ، ص ١١٧ .

وعن المغناطيسية ، يقول نفس العالم : إن « (نظرية الجزيئات المغناطيسية .. أقرب وأصدق نظرية يمكن أن تفسر الكثير عن المغناطيسية ، رغم أنها تعجز عن تفسير البعض الآخر . قد تكون النظرية خاطئة تماما . وعلى أى حال : فالمغناطيسية لازالت مبهمة يعتورها الكثير من الغموض) »، نقلا عن نفس المصدر ص ١٢٦ ، وهو ناقل عن نفس المصدر ص ٥٤ .

وعن الكهرباء يقول نفس العالم أيضا : « (إننا نعلم ما الذى تفعله الكهرباء ، ونعرف كيف تعمل ذلك، ولكننا لانعلم بالضبط لماذا تعمل الكهرباء ماتعمله،إننا فى الحقيقة لانعلم بالضبط ماهى الكهرباء، إننا نستعمل الكهرباء ولكننا لانستطيع أن نفهمها تماما) » ، نقلا عن المصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١١٧ وهو ناقل عن نفس المصدر ص ٦٠ ، ٧٢ .

(١) الإسلام والتيارات المعاصرة ، دكتوران : عبد المعطى بيومى ، =

إن المادة دون شك جانب كبير من الوجود، ولكنها ليست كل الوجود، وأى إنسان يخالف فى ذلك إنما يتعسف ويغالط.

فالذرة — وهى الوحدة التى تتركب منها الأجسام — لم تعد فى المنظور العلمى كيانا ماديا. يقول هانز ريشنباخ — وهو ملحد —: «(بعد أن فسر (لويس دى بروجلى) الجمع بين النظريتين الجزيئية والتموجية بأبسط معانيه، وهو أن هناك جزيئات تصحبها موجات، تسير مع الجزىء وتتحكم فى حركته ... قدم (شرودنجر) تفسيره بالإستغناء عن الجزيئات، وأنه لاتوجد إلا موجات، تتجمع فى بقاع صغيرة معينة، فينتج عنها شىء يشبه الجزىء، فهو إذن حزم موجية، تسلك على نحو شبيه بالجزيئات.

ثم اقترح (ماكس بورن) الفكرة القائلة: بأن الموجات لاتكون أى شىء مادى على الإطلاق وإنما تمثل احتمالات، فأدى تفسيره هذا إلى حدوث تحول غير منتظر فى مشكلة الذرة، وفى هذا التفسير لاتكون للموجات حقيقة الموضوعات المادية، بل تكون لها حقيقة المقادير الرياضية فحسب.

وواصل (هيز نبرج) السير فى هذا الطريق، حيث كشف عن مبدأ اللاتحدد، وأخيرا جمع (بور) بين نتائج (بورن) ونتائج (هيزنبرج)، فوضع مبدأ التكامل، وهو المبدأ القائل بأن تفسير (بورن) يقدم وجها واحدا للمشكلة، وأن هناك وجها آخر، وهو أن ينظر إلى الموجات على أنها ذات حقيقة فيزيائية، وهو رأى لايكون فيه للجزيئات وجود، ولاسبيل إلى التمييز بين هذين التفسيرين، لأن اللاتحدد — كما يقول هيز نبرج — يجعل من المستحيل القيام بتجربة فاصلة»[1].

= أحمد الشاعر، ص ٧٨، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م، المكتب الحديث للطباعة والنشر والتوريدات.

(١) فى مواجهه الإلحاد المعاصر وعقائد العلم، د/ يحى هاشم فرغل =

وهكذا تطورت الأبحاث الطبيعية فى الذرة، لتصل فى النهاية إلى أن الذرة ليست شيئا ماديا. ونتيجة كهذه تعطينا أساس القول بأن المادة التى يزعم الماديون أنها كل الوجود، لم تعد تحمل المفهوم التقليدى للمادة، وهى أنها كيان محسوس بالحس المباشر، وكيان صلب ثابت متحدد، كما تعطينا مسوغ الذهاب إلى أن الكون فى حقيقته لامادى. وان بدا فى الظاهر فى صورة المادة. أى أن الوجود ينتظم المادة، لا أن المادة تنتظم الوجود.

وليس هذا فحسب، بل إن هذه المادة الظاهرية، قد تقرر فى العلم المعاصر أنها ليست إلا شكلا من أشكال الطاقة، والطاقة غير مادية، فالجوهر الذى قال به فلاسفة اليونان الأقدمون، وعنوا به أنه حقيقة تركب الأجسام والأجرام، استقر العلم الحديث على أنه ليس غير الطاقة، يقول (فيرنرها يزنبرج): (لقدوجدنا الآن — كما تمنى الإغريق — جوهرا واحدا أساسيا، منه يتكون كل الواقع. وإذا كان علينا أن نسمى هذا الجوهر فلن نسميه إلا الطاقة، ولكن هذه الطاقة الأساسية لها القدرة على الوجود فى أشكال مختلفة.

ومن بين الأشكال الأساسية للطاقة، هناك ثلاثة أنواع بالذات ثابتة، هى: الألكترونات والبروتونات والنيوترونات، وتتركب المادة بمعناها الحقيقى من هذه الأشكال الثلاثة، بالإضافة إلى طاقة الحركة، كما أن هناك جسيمات تتحرك دائما بسرعة الضوء، وتسمى الإشعاع، وأخيرا هناك أشكال لها فترة حياة قصيرة، لم نكتشف منها إلا القليل.

= ص ١٠٢، ١٠٣، سلسة البحوث الإسلامية، بمجمع البحوث الإسلامية، السنة الحادية عشرة ربيع الأول ١٤٠٠ هـ = يناير ١٩٨٠ م.

وعلى هذا ، فإن تعدد الظواهر الطبيعية يخلق إذن عن طريق تعدد مظاهر الطاقة) .

ويقول (لويس دى بروجلى) ، عن نظرية النسبية : إنها (بددت كيان المادة ، إذ أزالت نواحيها المادية ، بأن اختزلتها إلى مجرد شكل من أشكال الطاقة) »[١] .

فهل أضحى العلم الآن يتعامل مع اللاماديات فقط ؟ أو أنه صار لاماديا ؟ هذا بالفعل ماعليه العلم الآن ، ويبين الدكتور (هرمل راندال) لنا كيف أن العلم لم يعد ماديا . فيقول : (إن الطاقة أصبحت فى هذه الأيام أكثر أساسية من المادة ، وعلى ذلك : فإن علمنا لم يعد اليوم علما ماديا ، إذا أردنا الدقة فى التعبير . وليس لقوانين الحركة الآلية من الشمول بمثل ما لسلوك حقل الإشعاع .

بل قد لاتكون هذه القوانين سوى مجرد شكل خاص لذلك السلوك ، ونتيجة هذا أن علمنا اليوم لم يعد علما آليا ، كعلم (نيوتن) ، »[٢] .

إن العلم بهذا يتقدم نحو المفهوم الميتافيزيقى بخطى واسعة ، فلا يتشبث بمادية الوجود ، بل هو قد تمرد عليها بالفعل ، يقول الأستاذ (فانيفاربوش) عن تمرد العلم على المحسوسات : (يذكرنا العلم على الدوام بأننا مازلنا جهلاء . وأنه ما زال أمامنا الكثير مما نتعلمه ، فالزمان والمكان متشابكان بأشكال غريبة ، وليس هناك زمن مطلق ، أو مكان مطلق .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢١ ، ١٢٢ . نقلا عن المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ . نقلا عن تكوين العقل الحديث ، ج٢ ، ص ١٣٢ .

وفى داخل الذرة تحدث ظواهر لايجدى حيالها التخيل ، ولاتنفع الحواس ، التى ترشدنا فى خبراتنا اليومية ، ولكنها تستسلم للمعادلات التى لامعنى لها سوى أنها تؤدى عملها على مايرام)»[١] .

ويقول الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ، مصورا كيف آلت الأبحاث فى المادة إلى تغير حاسم ، قضى على المفهوم الواقعى لها :

«(كانت فضيلة المادة عند الماديين أنها تقوم على الحقائق والوقائع ، لا على الظنون والأوهام ، فهى عندهم حقيقة الحقائق الثابتة التى لا يعتريها الشك ، لأنها محسوسة محصورة فى مكان محدود ، يخبط أحدهم على المائدة بيده ، أو يضرب على الأرض بقدمه ، ويقول لمن يجادله : هذه هى الحقيقة التى ألمسها بيدى ، وقدمى ، أو أراها بعينى .

ثم حدثت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة . عرفها الأقدمون .

فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة ، وأنها ليست محصورة فى النار والهواء والماء والتراب .

ثم تقدمت معرفتهم بالمادة ، حتى أفلت من المادة كل شىء ثابت ، أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة .

فاللون من الشعاع ، والشعاع هزات فى الأثير ، والوزن جاذبية ، والجاذبية فرض من الفروض ، والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية ، وعلى سرعة الجسم فى الحركة ، ونصيبه من الحرارة .

والحرارة ماهى ؟ حركة . والحركة فى أى شىء ؟ فى الأثير ، والأثير ماهو ؟ فضاء أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضاء ، فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

حتى الصلابة التى تصدم الحس ، أصبحت درجة من درجات القوة ، تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والإختلال .

فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة يضربها الضارب بيده فترده ، فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة من يد الإنسان القوى بالعضل والعصب ؟

إن حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه ، أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق ...

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى ، فإذا المادة كلها كهارب وذرات ، وإذا بالذرات تتفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور ، هل هذا الشعاع موجات ؟ أو هو جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك ، فهذا أو ذاك فى ميزان التجربة سواء ..)»[1] .

هذه هى المادة فى المفهوم العلمى الحديث ، كيان معقد ، وعناصرها توشك أن تكون لا مادة ، وإذا كانت المادة شأنها هو هذا ، فهل يجوز لمادى أن يزعم إعتصامه بالعلم فيقصر الموجود على المحسوس ؟

إن المحسوس هذا لم يعد كما تصوره الفلاسفة الماديون ، وكما تصوره العلم حتى قرب نهاية القرن الماضى ، بل قد دخل فى مفهوم العلم فى القرن العشرين إلى نطاق جديد « أوشك فيه أن يتبدد ويتلاشى .

وعلى ذلك نكرر القول ، بأن الوجود المادى أقرب إلى اللامادية منه إلى المادية ، وبأنه إذا كان هذا هو حال الموجود المادى ، فهل تبقى أمامنا عقبة كذلك فى رفض إنحصار الموجود فى المحسوس ؟

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٧، ١٣٨ .

إن المادة بما كشفت عنه من غيبيات تؤكد حقيقة علمية هى أن الوجود أدنى إلى المعقول منه إلى المحسوس .

والغيبيات فى العلم ، لم تقتصر على غيبيات المادة فقط ، بل تجاوزتها إلى مجالات :

علم الحياة وعلم النفس ، فقد عاد علماء الحياة وعلماء النفس المعاصرون إلى الإعتراف بنواحى حيوية ونفسية ، تتصل بما كشفت عنه الفيزياء الحديثة من ثنائية المادة . فلم تعد تفسر الحياة والنشاطات الحيوية للكائنات على أساس الواحدية المادية ، والخاضعة لعمليات فزيوكيمائية ، وقد تقرر علميا أن « دراسة الوظائف الحيوية سوف تضطرنا إلى أن نتجاهل إلى حد بعيد العمليات الفزيوكيميائية ، التى تتم فى أعماق الأنسجة والخلايا ، وعلى ذلك ، سوف يستحيل وصف الحياة بالعمليات الفزيو كيمائية وحدها »[1]، بل تكون ممكنة التفسير لو روعيت المؤثرات غير المحسوسة .

كذلك لم تعد تفسر الظواهر النفسية ، فى ضوء الطبيعة المادية للإنسان ، بما تنطوى عليه من تفاعلات كيمائية ، وتحليلات طبيعية ، وحقيقة أننا نعرف الكثير عن الجزء المادى من جسم الإنسان ، ولكن الحقيقة الأقوى أننا نجهل الإنسان الذى يدير هذا الوجود المادى »[2] ولنا مع غيبيات علم النفس ، تفصيل آت إن شاء الله .

وإذا كانت تلك شهادة العلم فى شتى مناحيه ، فـ « حين تشترك المذاهب الإلحادية كلها فى القول بالمادة كوجود وحيد ، تعجز

(١) المصدر نفسه ، ص١٤٢ ، ١٤٤ .
(٢) الدين فى مواجهة العلم ، ص٧٠ .

عن تفسير ظواهر أساسية وهامة بالنسبه للكون ككل ،والعلم والإنسان بوجه خاص .

الحياة الشعورية ، التى يستحيل أن تنشأ من المادة إلا بتدخل من خارجها ، الظواهر الروحية والنفسية ، والقوى التى مازال يعرفها بآثارها فحسب »[1] .

وللحق والحقيقة ، فإن الماديين لما قصروا الموجود على المحسوس . قد خسروا أشياء كثيرة ، منها : دعوى التقدمية ، التى دائما ما ينسبون أنفسهم إليها . أو ينسبونها إلى أنفسهم ، فلو كانوا تقدميين حقا لما جمدوا على عقيدة تخطاها العلم ، وصارت بالنسبة إليه عقيدة الأمس لا عقيدة اليوم .

وخسروا أيضا العلم المادى الذى يركنون إليه ، فلو ظل الإنسان ينكر كل شىء لا يحسه ، لما خسر بذلك الديانات وحدها ، بل خسر معها العلوم والمعارف ، وقيم الآداب والأخلاق .

والماديون فى العصر الأخير يعدون أنفسهم جماعة تقدم . وإصلاح العقول ومبادىء التفكير ، بينما هم — عندما ينكرون ماعدا المادة — يرجعون إلى أقدم العصور ، فيقولون إن الموجود هو المحسوس ، وكل ما بينهم وبين الهمج من فرق ، أنهم استعانوا على السمع والأبصار بوسائل العلم الحديث »[2] .

---

(١) دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق د / محمد أحمد مصطفى وآخرون ، ص ٤١ .

(٢) الفكر المادى الحديث ... ، ص٥١٣ والكلام للعقاد .

وبالرغم من أن الماديين قد وقفوا على تلك الحقائق العلمية . ورددوها إلا أنهم ما زالوا فى غيهم يعمهون ، وباتوا على الضلال والعناد ، فها هو ذا (برتراندرسل) ، الفيلسوف المادى الإلحادى ، يقرر : « أن عالم المادة الذى يعترف به علم الطبيعة الحديث ، أصبح شيئا آخر يختلف عن عالم المادة ، كما تدركه حواسنا ، وأنه — أى عالم المادة فى الفيزيقا الحديثة — يدرك بالإستنتاج ، وأنه من ثم واقع تحت الشك .

يقول رسل : (علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء يؤكدان لى أن الكرسى القائم هناك ، مستقلا عن إبصارى شىء لا يشبه مطلقا ما تصورته .

بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهربيات ، تحت تأثير بلايين التحولات الكمية ، وعلاقتى بهذا الشىء غير مباشرة ، ولا تتأتى معرفتها إلا بالإستنتاج .

فهى توجب أن نميز بين العالم المادى لعلم الطبيعة ، والعالم المادى المتمثل فى خبرتنا اليومية).[1] وهنا يدنو (رسل) من القول بالكيان الميتافيزيقى للمادة ، الذى لا تتأتى معرفته إلا بالإستنتاج العقلى ، دون الحواس ، ولو تابعنا تصريحات (رسل) فيما يخص المادة لظفرنا بالمزيد ، بل إنه يذهب إلى أن المخ الإنسانى يكاد يكون مجهولا لنا بصفة أشد من جهلنا بحقيقة المادة ، أى أنه لم يعد هو تلك الأنسجة المجهرية ، المادية ، بل كل ما يستطاع علمه « (بصدد هذا المخ ، لا يعدو عناصر تكوينه ، التى ستطبع (فى الحسن البصرى) أما عن الخصائص الأخرى غير خصائص التركيب فلا سبيل إلى معرفتها) »[2] .

---

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر... ، ص ١٩٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٨ .

وبذلك ، يزول المفهوم المادى للمادة عند (رسل)، فيضطر إلى الإقرار بغيبية مفهوم المادة ، فهو الذى يقول : « (أخذت المادة تشف تدريجيا.. حتى لم يبق منها الا الإبتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لايزالون يظنون أنها موجودة) .

ويقول : (أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين ، وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية)»[1] .

هذا هو كلام (رسل) ، ذلك الملحد الذى لم يوارب فى إعلان إلحاده ، فهو الذى يقول : « فى مقدمة كتابه (فلسفتى كيف تطورت ، ص ٤): (فيما يختص بالدين فقد انتهى بى الأمر إلى أن كفرت أولا بحرية الإرادة ، ثم بخلود الروح ، وأخيرا بالله)»[2] .

فالمادة فى نطاق العلم ، بل فى نطاق الفكر المادى ، لم تعد هى تلك التى ترى وتشم وتلمس ، بل أضحت مفهوما عقليا تصوريا ، وكيانا ميتافيزيقيا غيبيا ، فها هو ذا العالم (كارل بيرسن) « ينظر إلى المادة على أنها ... مفهوم تصورى أو ذهنى . يستخدم فى وصف انطباعاتنا الحسية ، ولا يقابله وجود فعلى فى الخارج .

أما المادة التى يشيع وصفها بأنها علة الإنطباعات الحسية ، فهى فى رأيه كيان ميتافيزيقى ، ومن الشائع أن توصف المادة بأنها صلبة ، وغير قابلة للإختراق ، وهاتان بالفعل صفتان تتميز بهما مجموعة كبيرة من الإنطباعات الحسية ، المسماة بالمادية ، غير أنهما لاتنتميان بالضرورة إلى كل أفراد هذه الفئة .

---

(١) نقلا عن نفس المصدر ، ص ١٩٣ .

(٢) نقلا عن نفس المصدر ، ص ١٩٢ ، هامش (٢) .

فالصلابة وعدم الإختراق أمران نسبيان ، ولا يدلان على صفة مطلقة تنتمى إلى عالم الواقع »[1]

بعد هذه الجولة مع العلم والعقل فى معرض نقد المبدأ المادى القائل إن الوجود منحصر فى المحسوس ، نقول : لقد كان من الحرى بالمفكرين الماديين أن يواكبوا العلم فى تقدمه نحو الحقيقة ، فينزعوا عن تشبثهم بمادية الوجود كما قد نزع هو .

أما وقد أرادوا فك الإرتباط بينهم وبين العلم ، الذى ظاهروه وناصروه وقت أن كان أداة لإلحادهم ، فلم يعدلهم مندوحة عن الإقرار على أنفسهم بأنهم ليسوا علميين ، وليسوا منطقيين ، وبذا تكسد بضاعتهم فى سوق العقل والعلم . وذلكم هو الخسران المبين .

لقد باعوا الحقيقة بثمن بخس ، باعوها بالهوى والتعصب ، والهروب من تبعات الإيمان . وهم يريدونها شهوة وتحررا ونكوصا فى الحياة ، وفى الممات .

إن كلمات قالها أحد الباحثين المعاصرين ، تعليقا على معطيات العلم الحديث ، فى جانب المادية والوجود ، وعلى جمود الماديين على ماهم عليه ، تصور بحق مأساة الفكر المادى ، وارتكاسه فى الغى والضلال . يقول الباحث :

« وإذا كانت هذه النظرة لاتزعج العلماء التجريبيين ، ولا تزعج ، أولا ينبغى أن تزعج الماديين الملتزمين بالعلم التجريبى . فهى من غير شك تزعج أولئك الذين وجدوا فى تحالف العلم مع المادية دعما لنزعتهم الإلحادية .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

أما وقد صار هذا المخالف خطرا على الإلحاد — بعد الفيزياء الحديثة — فإن إخلاصهم للإلحاد — وهو يأتى فى المقام الأول لكونه إرادة محضة — يجعلهم — كما فعل (بيرسن) — يفصلون العلم عن المادية فى وضعها الذى اضطرها العلم إليه ، فيهاجمون المادية ، لأنها — فى رأى بيرسن — (تسير فى نفس الطريق الذى تسير فيه المذاهب الميتافيزيقية واللاهوتية...) مدعين أنها بذلك تصبح مضادة للروح العلمية السليمة.(١)

فأى مأساة بعد أن يضطر المادى إلى رفض العلم ، ورفض المادية ، ومع ذلك يصر على الإلحاد ؟

ذلكم هو وسم النزعات الشاردة ، والأفكار المريضة ، ولن يصح فى النهايه إلا الصحيح .

وسيلة المعرفة هى الحواس

هذا هو ثالث الثلاثة من المزاعم التى نتناولها هنا بالمناقشة ، ويمثل القول بإنحصار وسيلة المعرفة فى الحواس خاصية أساسية من خواص الفكر المادى الإلحادى . ومن ثم مثلث دعامة له على امتداد تاريخه ، لكن فترة القرن التاسع عشر ، هى أشد فترات ارتباط الفكر المادى بالحس والمعرفة الحسية ، حتى لقب هذا القرن بـ (عصر سيادة الحس).

ولقد سبق أن قلنا: إن حصر الموجود فى المحسوس ارتبط به مباشرة حصر المعرفة فى الحواس . والماديون بذلك من القائلين بالمعرفة الحسية ، وأن مالايقع فى حدود هذه المعرفة فليس له حظ من الوجود .

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١٠.

ووفاقا لما نبهنا إليه من قبل من أن عناصر الفكر المادى متلازمة ، متداخلة ، وبالتالى تتداخل عناصر مناقشتها إلى حد كبير .

فإننا هنا ونحن نناقش هذا الزعم لاننس كثيرا ما سبقت به المناقشة للمزاعم الأخرى . ومع ذلك ففى الإمكان تخصيص حديث هنا ، يأخذ عما سبق ويضيف ، بغية الوصول إلى دحض هذا الزعم الخطير .

من الناحية الفكرية :

نتذكر هنا ماقلناه سابقا من أن الوجود يقابل العدم ، فإذا انتفى العدم تحقق الوجود ، وإذا تحقق الوجود ، فلايلزم أن يكون ماديا ، بل يشمل كل وجود سواء كان ماديا أم غير مادى .

ومؤدى ذلك أن الحواس ليست هى الوسيلة الوحيدة المتعينة للمعرفة ، لأنها لاتنال إلا ما يقع فى دائرتها وهو الوجود المادى .

وحيث قد ثبت عقلا أن الوجود منه المادى ومنه غير المادى ، فإن الحواس لاتعدو أن تكون إحدى طرائق المعرفة والإدراك ، وينفسح المجال بالتالى أمام الوسائل الأخرى ، التى تدرك الوجود غير المادى ، وهى العقل والبصيرة .

أيضاً : هنالك — وفى ضوء ذلك — حدود للإدراك الحسى يقف عندها ؛ بمعنى أن الحواس لاتدرك إلا ظاهر الأشياء فقط ، أما الحقيقة المنطوية وراء هذه الظواهر ، فليست من بضاعتها ، لأنها حقيقة إستنباطية عقلية ، كما أوضحنا آنفا .

وأزيد من البيان لذلك نقول : « إننا ندرك مثلا أن الأرض تدور حول الشمس ، وهذا الإدراك لم يأت عن طريق البصر ولا الشم ولا

اللمس ولا المخ بما هو مركب من ذرات وجزيئات ، لأن الذرات بما هي لاتدرك شيئا ، فلا صلة إذن للحواس بالإدراك إلا فى معرفة الجزيئات المحسوسة ، كاللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة والبرودة لأنها تحس ، فتحتاج معرفتها إلى الحواس ، أما الأمور التى لا تحس فهى فى غنى عن الحواس ، للإكتفاء بإدراكها عن طريق العقل»(١).

والمعرفة إذن ليست حسية فى كل الأحوال ، أو ليس ضروريا أن تبدأ المعرفة من الحواس ، وإذا كان ذلك كذلك ، فإن المعرفة تستوعب أدوات ووسائل كثيرة . هى كلها — باستثناء الحواس — تنفتح على ماوراء الوجود المادى . والمعرفة الحاصلة منها معرفة حقة . والموضوع المعروف بها موجود وجوداً حقاً .

وفى ذلك إمكانية إدراك الوجود الميتافيزيقى ، الذى يرفضه الفكر المادى ، ويمثل أساس بناء الإيمان الدينى .

أما من الناحية العلمية :

فإن العلم الحديث قد استبعد أن يكون الحس هو المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن يكون العلم والمعرفة منحصرين فيما يناله بوسائله ، «لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ولكن الأشياء التى نلاحظها بهذه الوسائل كثيراً ماتكون أمورا سطحية وغير مهمة نسبياً.

أما النظريات التى يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات ، فهى أمور لاسبيل إلى ملاحظتها ، والذى يطالع العلم الحديث يجد أكثر آرائه

(١) حوار بين بين الفكر المادى والفكر الدينى ، ص ١١٠ ، ١١٣ . وراجع تفصيلاً أكثر فى ص ١٠٧ ومابعدها .

تفسيرا لملاحظات ، وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا .

فأى عالم من علماء عصرنا لايستطيع أن يخطو دون الإعتماد على ألفاظ مثل : القوة ، . . والطاقة . . . والطبيعة . . . وما إلى ذلك ، ولكن لايدرى ماالقوة والطاقة والطبيعة . . فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكى يبين عن عالم غير معلومة»(١) .

وهنا يتقرر لدى العلم ، إعتماد العقل والإستنباط العقلى ، كطريق متعين ، للتعرف على حقائق علمية ، لايتناولها الحس ، ولا تقع تحت التجربة .

ومن ثم يقول البروفسور (أ . ى . ماندير) : «(إن الحقائق التى نعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة . . . بيد أن الحقائق التى توصلنا إلى معرفتها لاتنحصر فى الحقائق المحسوسة ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال .

ووسيلتنا فى هذا السبيل هى الإستنباط . فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة) .

والأهم هنا (هو) أن نفهم أنه لافرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة والحقيقة دائما هى الحقيقة . سواء عرفناها بالملاحظة أو بالإستنباط) .

ويضيف ماندير قائلا : (إن حقائق الكون لاتدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر ؟

(١) الإسلام يتحدى ، ص ٦١ .

هناك وسيلة هى الإستنباط أو التعليل وكلاهما طريق فكرى، تبتدىء به بوساطة حقائق معلومة حتى تنتهى بنظرية: إن الشىء الفلانى يوجدها، ولم نشاهده مطلقا)»(١).

فالعلم يلوذ بالعقل، ويعتبر ما يصل إليه بطريقه حقائق علميـــة، لا تفترق عن الحقائق التجريبية إلا فى الإسم فقط.

بل إن العلم يعتمد على العقل فى التجريبيات «كاعتماده عليه فى غير التجريبيات، لأن الحقائق المدركة بالحس، قد تكون جزئية وغير مرتبطة بالأخرى، فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا، فإذا ما درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة، ما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها.

إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهدا، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك، ونعلم أن الصعود فى الجبل أشق من النزول منه، ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحـــداها بالأخرى ظاهرا، ثم نتعرف على حقيقة إستنباطية هى (قانون الجاذبية).

وهنا ترتبط جميع هـــذه الحقائق، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى إرتباطا كاملا داخل النظام»(٢).

فالإستنباط العقلى هنا هو الذى ألف بين هذه المشاهدات. وجعل منها كلا مترابطاً فى نظام ونسق عام هو الجاذبية، فى حين أن الجاذبية

(١) المصدر نفسه، ص٦٢، ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص، ٦٣، ٦٤.

ذاتها حقيقة تصورية افتراضية، لم تجرب أو تشاهد، وعدّت علمياً من المسائل الغامضة، التى لم تحظ بتفسير نهائى، شأنها شأن الكهربية والمغناطيسية.

وفوق ذلك، فالنظريات العلمية المستقاة من القوانين التجريبية، هى فى النهاية أمور عقلية افتراضية، لكنها تساوى فى علميتها وحقيقتها الحقائق الملحوظة بالحس والتجربة.

ومن هنا يتدانى العلم من الإقرار بالغيب، كحقيقة علمية مقررة، ذلك أن العلماء «لا يستطيعون أن يقولوا: إن الحقائق الملحوظة هى وحدها (العلم) وأن ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل فى نطاق العلم، لأنها غير ملحوظة.

والحق أن هذا هو ما نسميه (الإيمان بالغيب)، وهو بالنسبة إلى المؤمنين ليس سوى الإيمان بحقائق غير ملحوظة. فهو ليس بعقيدة عمياء، وإنما هو خير تفسير للحقائق التى يشاهدها العلماء»(١).

هذه شهادة العلم بل هى ضرورة العلم: أخذٌ بالعقل والإستنباط العقلى، فى نطاقات جوهرية. لم يكن ليتقدم نحوها. إلا على مطية العقل.

ومفاده: أن العلم يعترف بالعقل كوسيلة للوصول إلى الحقيقة، وبالتالى فالوقوف عند الحس والتجربة المباشرة ليس من مبادىء العلم الحديث، وفى ذلك مخالفة جد واضحة للفكر المادى الذى لا يعترف إلا بالحس وسيلة للمعرفة الحقة.

(١) المصدر نفسه، ص٦٩.

فكان من الحرى بالماديين أن يواكبوا الروح العلمى . ويصنعوا صنيع العلم مع نفسه، الذى لايجد حرجا فى رفض النظريات التى تقصر دون التفسير الصحيح للظواهر ، حيث تجاوزها إلى نظرياب أخرى أكثر قدرة ، وعلى ذلك نقول : «كما رفض العلم نظرية الضوء التى قدمها نيوتن.. لأنها لم تنجح فى تفسير مظاهر حديثة للضوء ، فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين . لأنها فشلت فى تفسير مظاهر الطبيعة »[1] ، لما وقفت عند الحس ، ورفضت ماعداه من طرائق المعرفة ، كأثر مباشر للوقوف عند المادة بمعناها التقليدى ، والتى هزها العلم هزا عنيفا ، إن لم يكن قد جافاها بالفعل .

بيد أنه يمكن للفيلسوف المادى أن يقول : هذا طيب ، ولكن العقل نفسه ، ما هو ؟ إنه مادة ، أو صورة من صور المادة . وعلى ذلك : فإدراكاته لا تخرج عن كونها مادية ، ومرتبطة بالمادة . وقوانينه هى قوانين المادة ، ولا يستطيع العقل بهذا أن يختص بمعارف تعلو على المادة ، فلا « معنى لأن نأخذ بشىء عقلى مختلف عن الجانب الجسمى العضوى ، وذلك لأن هذا الشىء العقلى قد نشأ — فى نفس الوقت — مع الشىء الجسمى العضوى ، وسيفنى معه يقينيا »[2] .

« ونقول ردا ... إن هذا .. يتحرك بصعوبة بالغة فى عالم الإفتراضات التى يمكن البرهنة عليها ، وذلك لأن بداية ونهاية الحدث العقلى فى هذا العالم، ليست معطاة لنا فى أية خبرة .

أما حقيقة أن هناك شروطا جسمية للحدث العقلى ، فإن هذا لايبرهن ... على أن هذه الشروط هى الإحتمال الوحيد الممكن . والأمر

(١) المصدر نفسه، ص ٦٩، ٧٠ .
(٢) تمهيد للفلسفة، ص ٢١٣ .

المؤكد على كل حال ، هو أن الحياة النفسية مثلها مثل الحياة بصفة عامة ، لها قوانينها الخاصة ، التى لا تستنبط من قوانين الجمادات ، فالأحداث النفسية التى تمر بنا ، فيها شىء مختلف تمام الإختلاف عن كل ما هو مادى »[1] .

فإدعاء أن العقل مادة حسية ، ومعارفه مرتبطة بها ، إدعاء لا يجاوز الإفتراض ، الذى نجد صعوبة فى تحقيقه بالدليل والبرهان .

ولذا فإنه يمكن القول بأن العقل له طبيعته الممتازة عن المادة ، ومن ثم فله مجاله الخاص المنقطع عن مجال الحواس .

وعموما : فإن « النظرية الكمية للوجود قائمة على إفتراضات ، ولا ينبغى أن لا يغيب أبدا عن الذهن أن هذه الإفتراضات يجب أن تظل فى وضعها على أنها مجرد إفتراضات .

فالنظرة الكمية (المادية) للوجود ليست إلا وجهة نظر فقط ، من بين وجهات نظر كثيرة ممكنة، فإذا وضعت على أنها مطلقة ، فإن ذلك يمثل إغتصابا للحقيقة »[2] .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن النظرة الكيفية للوجود تجد لها مساغا فى العلم والفلسفة ، وتلك النظرة تقوم على الفكر والنشاط العقلى .

إن الماديين لما زعموا أن العقل مادة ، هى المخ أو الدماغ ، وأنه يفرز الفكر بشكل طبيعى عضوى ، كما يفرز الكبد الصفراء ، والكليتان البول ، قد جانبوا مقررات الفلسفة . ومقررات العلم الحديث . وهذا

(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها .
(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

هو عالم تجريبي ، هو الدكتور (جون كيمنى) ، يناقش الماديين فى شأن مادية العقل ، فيقول : « (وإذا نحن الآن (جئنا) إلى المعالجة العلمية لمشكلة العقل ، نلاحظ أنه يجب على الموقف المادى أن ينظر إلى العقل على أنه آلة شديدة التعقيد ، ويقر أن أى آلة معقدة إلى الحد المطلوب قادرة على التفكير .

فلنتحر إذن هذه الفرضية فى الآلات المفكرة . ربما كان أكثر العوامل مغزى فى تطورات الإنسان الأخيرة ظهور أولى الآلات المفكرة الجيدة ، لقد صممت هذه الآلات للقيام بالعمليات الحسابية المعقدة ، إلا أنها وصلت إلى مرحلة عدت معها أكثر بكثير من مجرد آلات حاسبة .

وهذه الآلات الآن تهيأ لآلاف المهام . التى تفوق أعز أمانى الذين قاموا بتصميمها ، من الصعب علينا أن ننكر أن كثيراً من هذه المهام يمكن أن يسمى تفكيراً ، وعلى مستوى رفيع . حين يقوم بها بنو البشر .

إذا كان لابد من أساس عقلى لتفوقنا على الآلات ، فيجب أن يستند إلى إمكاننا القيام بتصرفات معينة ليس بمستطاع الآلات أن تقوم بها ، ولدينا فى الوقت الحاضر على الأقل متسع كبير لهذا الإدعاء .

وهذا يترك لنا كلية مجال الحدس والتبصر والتكهن الملهم...

وللكائنات البشرية القدرة على حل المشاكل بواسطة عمليات مختصرة ، لا يستطيعون تفسير طبيعتها .

إن إمكان تعليم الآلات هذا الطراز من التكهن أمر فيه جدل .

أما هل هذه المرحلة ممكنة البلوغ ؟ فأمر يجب ترك باب البحث مفتوحا فيه . . .

هذه هى الحقائق ، فما هو الإستنتاج الفلسفى الذى يمكن لنا إستخلاصه منها ؟

الإمكانية الأولى . هى القول بأننا فى الواقع نختلف إختلافا أساسياً عن الآلات) »[1] .

هذا هو قرار أحد العلماء ، يوضحه ويؤكده قرار آخر لعالم آخر يقول فيه : « (إننى عاجز عن فهم معنى العقل برده إلى المخ) .

ويقول : (إننى من بعض النواحى مستبطن متصوف ، لأن كل تفسير مادى للعقل يفلت منى ويروغ) » . [2]

وتأسيساً على كل ذلك نقول : إن التحقيق من الوجهتين الفلسفية والعلمية قد أثبت « أن وسائل المعرفة متعددة ، وكل منها يعطى يقيننا فى الحدود التى خلقت لتعمل فى نطاقها . فحدود الحواس هى ما ظهر من الكون ، واستطاعت الوصول إليه »

وحدود العقل هى النظر فى هذه المحسوسات وتحليلها ، ويستطيع العقل أن يصل فى هذا الطريق إلى وجود صانع لهذا الكون وتنتهى هنا حدوده .

ولكن هناك آفاقا أخرى لابد من إرتيادها ، مثل طبيعة هذا الصانع وصفاته وعلاقته بالكون ، وما يجب على الإنسان نحوه ، إلى غير ذلك .

---

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر ... ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، وهو ناقل عن : الفيلسوف والعلم ، ص ٣١٤ — ٣٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

هذه الآفاق لا يستطيع العقل أن يصل اليها وحده ، وهنا تأتى وسيلة أخرى من وسائل المعرفة لتساعد العقل الإنسانى ، و... هى الوحى من الله تعالى » . (١)

فالوجود أرحب من المحسوسات ، وطرائق المعرفة أرحب من الحواس ، إن العلم يقول : إن فى هذا المكان الخالى أصواتا وأحاديث ولكننا لا نسمعها ، ويقول : إن فيه صورا وأشخاصا موجودة ، ولكننا لا نراها وافتح المذياع أو التليفزيون لكى تتأكد من هذه الحقيقة ، فما بال .. التجريبيين يزعمون أن الموجود هو المحسوس فقط ، مع أن العلم أثبت وجود ما ليس بمحسوس ؟ .

بعد أن أثبتنا أن العقل وسيلة من وسائل المعرفة ، تتقدم خطوة أخرى ، لنقول : إن من وسائل المعرفة ما ليس بحس ولا بعقل ، بل ينتمى إلى نطاق آخر ، هو مايسمى حديثا (بالوعى الذاتى) ، والمقصود به « كل وعى يتجاوز حدود الحواس المعهودة .

وهذا الوعى أنواع كثيرة ، يبحث فيها العلماء فى العصر الراهن ، ولا يجزم أحد بأنها مستحيلة ، أو قليلة الجدوى ، ولكنهم يختلفون فى تقرير نتائجها ، وتعليل سبب هذه النتائج ولا يغلقون الأبواب بالنسبة لها أمام البحث .

والملكات النفسية التى تتجاوز ما تألفه الحواس الإنسانية ، ويدور عليها بحث العلماء فى العصر الحاضر كثيرة ، وكل هذه الملكات قديم ، معهود فى جميع الأجيال والعصور ، لم يجد عليها إلا التسمية العصرية ، ومحاولة العلماء أن يحققوه بالتجربة والإستقصاء » (٢) .

(١) العقيدة الإسلامية رؤية جديدة .. ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٢) الفكر المادى الحديث... ، ص ٥٠٩ .

وقد اهتم بهذه الملكات علم النفس الحديث ، وخص المعارف الآتية عن طريقها ، وقرر أنها معارف لاصلة لها بالحواس ولا بالعقل . وإنما تتصل بقوى أخرى فى الإنسان والحيوان وترجع هذه القوى الى ما سمى بالوعى الذاتى .

وذلك يسمح بالقول — عن وثاقة — بأن وسيلة المعرفة أعم من أن تنحصر فى الحواس وحدها .

ولم يجد العالم بدا من وضع علم خاص لدراسة القوى النفسية تلك ، والتى تعلو فوق الحس والعقل ، وسموه علم (السيكوترونيا) . وهو علم دراسة التفاعلات النفسية العابرة للموانع المعتادة ، مثل الزمن والمسافة واللغة .. يدرس علم السيكوترونيك بصفة خاصة ظواهر مثل : إنتقال الشعور بين الأفراد عن بعد (التليباثى) .

رؤية الأشياء غير المنظورة (الكايرفويانس) .

الإدراك المسبق .

التغيرات النفسية الديناميكية » (١) .

وقد احتل هذا العلم مكانة علمية خاصة ، وحظى باهتمام علماء النفس والأطباء وغيرهم و « فى خلال الخمسين عاما الأخيرة ، أخذ كثير من العلماء يعترفون بعلم السيكوترونات على أنه مجال جديد من مجالات المعرفة البشرية » (٢) .

وأفاد منه علماء النفس والأطباء . فى علاج كثير من الأمراض النفسية والعضوية .

(١) فى مواجهة الالحاد المعاصر... ، ص ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

وهذا العلم لا صلة له بالروحانيات والروحانية، فإن السيكوترونيات ليست هى الروحانية التى كانت أفيونا يخدر بعض الناس فى أوربا وأمريكا وغيرها، وتنأى السيكوترونيات عن دراسة وبحث المعجزات.

ومن ثم فإنها تحدد — عن عمد — حدود ومعالم تجاربها على نحو يسمح بإعادتها وتكرارها فى أى وقت ..»[1].

ولقد كان متوقعا — والحالة هذه — أن يواجه مثل هذا العلم بالكفاح من جهة الماديين، فاتهموه بالكثير، ومنها الروحانية، التى طالما شجبوها وطاردوها وشوهوها كذلك، فكان أن حاولوا نفس المحاولة مع هذا العلم فرموه بالروحانية، التى كانوا قد نجحوا فى مدافعتها إلى حد ما.

يقول أحد المهتمين بهذا العلم، مصورا موقف الإلحاد من هذا العلم: «(وأرى أن هذا التخوف لا يقوم على أساس علمى، وإنما هو شىء من الإرهاب الثقافى، الذى يشيعه الإلحاد فى جو العلماء)»[2].

إن ظهور مثل هذا العلم يسهم إلى حد كبير فى دحض الزعم المادى بأن وسيلة المعرفة هى الحواس فقط. بل إنه يؤكد أن الحس ليس إلا وسيلة ضعيفة جدا من وسائل المعرفة.

بعد ذلك نأتى إلى تناول بعض الظواهر والملكات النفسية التى يدرسها هذا العلم. واعتبرت داخلة فى نطاق وسائل المعرفة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه، الصحفة نفسها. والعالم هو د/ رندينك رجداك. وراجع الفروق بينها وبين الروحية فى نفس المصدر ص، ١٦٥، ١٦٦.

التلبائى:

هو راجع إلى إحدى الملكات النفسية التى يدرسها هذا العلم، ويطلق عليها كذلك: الشعور على البعد، وهذه الملكة «ربما كانت أشيع الملكات وأقربها إلى الثبوت، وأغناها عن أدوات المعالجة والتناول، وأبعدها عن التلقين والتدريب»[1].

والتلبائى: «هو نقل الرغبات أو الصور أو الخواطر، دون استخدام الحواس الخمس»[2].

فيوجد من الناس من «يستحضرون فى أخلادهم سيرة إنسان بغير سبب يعلمونه، فإذا هو ماثل أمامهم ساعة استحضاره، أو يقلقون لغير سبب فى لحظة من اللحظات، ثم يعلمون بعد ذلك أن إنساناً عزيزاً عليهم كان يتألم، أو يذكرهم فى تلك اللحظة وهو فى ضيق وتغويث. وقد يسمعون هاتفاً يلقى إليهم بعض الكلمات، ثم يقال لهم: إن هذه الكلمات قد هتف بها مريض يحبهم ويحبونه، وهو غائب عن وعيه، إلى غير ذلك من الأمثلة التى تشابه أو تخالف ما ذكرنا، لكنها تتسم بسمة من هذه السمات ...

وأجرى كثير من العلماء تجارب على هذه الملكة، ومن هؤلاء من يؤمن بالنفس، ومنهم الملحد الذى لا يؤمن إلا بالمادة. ومنهم المتدين الذى يلتمس لهذا الشعور علة من العلل الطبيعية، ولا يرى ضرورة للرجوع به إلى عالم الروح والعقل المجرد»[3].

---

(١) الفكر المادى الحديث ....، ص ٥٠٩.

(٢) فى مواجهة الإلحاد المعاصر ...، ص ١٦٦.

(٣) الفكر المادى الحديث ...، ص ٥٠٩، ٥١٠.

هذه الملكة بهذه المواصفات تنبىء عن نوع من المعرفة لايخضع للحواس ، ولا للعقل ، وقد أصبحت ظاهرة التلباثى الآن « حقيقة ثابتة ببراهين قوية ، تأكدت فى القرن الحالى .. »[1] ، وفى ضوء التجارب العديدة المنوعة ، ظهرت عدة نتائج منها :

١ — يمكن إثبات حدوث التلباثى (انتقال الشعور بين الأفراد عن بعد) فى الأحلام ، فى المعمل العلمى .

٢ — الذكور أفضل من الإناث فى استقبال الشعور عبر المسافات (التلباثى) .

٣ — ...

٤ — عند ما تحتوى الأهداف المراد نقلها بالطرق غير العادية على محتوى عاطفى ، فإنها تكون أكثر فعالية عن الأهداف الخالية من المحتوى العاطفى .

٥ — وكذلك كان من الواضح أن الأهداف ذات المحتوى الدينى كثيراً ما تنجح فى إحداث تأثيرات تلباثية » .[2]

وقد عرض المرحوم الأستاذ عباس العقاد لهذه الظاهرة ، وأورد النزعات المختلفة حولها ، وناقشها ، وانتهى إلى نتيجة ، عبر عنها بقوله : « وحسب الناظر فى الأمر ، بعد هذا أن يعرف أن تجارب الشعور البعيد ، ومايجرى مجراه . مثبت عند أناس لايعللونها بالروح ، ولا بالعقل المجرد ليمتنع من ذهنه أنها وهم من أوهام العقيدة ، وأنها خرافة متفق عليها ،

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر ... ، ص ١٦٦ ، والكلام للدكتور (شارلز ا . موسى) رئيس تحرير مجلة (دراسات فى الوعى) فى أمريكا .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

فلا تستحق الجد فى دراستها من طلاب الحقائق على سنن العلماء » .[1]

وأن هذه الظاهرة أو الملكة لا شك تؤكد جانب الإلهام أو المعرفة القلبية ، التى تفوق فى السمو المعرفة الحسية ، وكذا العقلية .

الإستشفاف :

وهو كذلك من ملكات النفس ، ويقصد به هنا : « الرؤية عن بعد ، وبغير استعمال حاسة البصر . فقد توصل الدكتور (شارلز ا . موسى) إلى أن بعض من ليست لديهم القدرة على نقل الأفكار عن بعد (التلباثية) توجد لديهم قدرة الإستشفاف » .[2]

وقد أجريت التجارب على أشخاص مبصرين ، وغير مبصرين ، وجاءت النتائج تؤكد وجود هذه الملكة ، بل كانت لها نتائج خطيرة فى عالم الحيوان والنبات ، إلى جانب نتائجها فى الإنسان [3] .

وتعرف هذه الظاهرة كذلك بالإدراك شبه البصرى ، أو ملكة الإدراك شبه البصرى . « وهذه الملكة يمكن أن تظهر دون اللجوء إلى التنويم المغناطيسى » .[4]

السمع بغير الأذن :

أثبتت التجارب الحديثة أنه يمكن تعويض النقص الطبيعى فى القدرة على السمع ، وأيضاً إمكان إسماع الأصم كلية الأصوات والكلمات مما يتأكد

(١) الله ، عباس العقاد ، ص ٤٩ . نقلا عن الفكر المادى الحديث ... ، ص ٥١٠ .
(٢) فى مواجهة الإلحاد المعاصر ... ، ص ١٦٨ .
(٣) راجع المصدر نفسه ، ص ١٦٨ ، وما بعدها .
(٤) راجع المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

معه أن إمكانية السمع لاترتبط فى كل حال بالأذن ، أى أن السمع ممكن بغير حاسة السمع .

ويقول الدكتور (أندريجا باهريش)، المتخصص فى العلاج النفسى بالأشعة ، عن علاج الصمم بالموجات اللاسلكية : (من الممكن تسليط موجة الراديو على الجلد . وقد أدى هذا إلى عدد من الآثار الهامة جداً. من ذلك : استعمال موجات الراديو المبرمجة لتعويض النقص فى القدرة الطبيعية على السمع .

كما أفادت هذه التجارب فى إمكان علاج الصمم العصبى عند الأطفال الصغار ، بواسطة اختراق الجلد هذا . وحسب معلوماتنا اليوم فإن الطريقة الوحيدة المعروفة لعلاج الصمم الكلى للإنسان هى باختراق موجات الراديو للجلد) » (١) .

التحريك عن بعد :

وهذه ظاهرة أخرى اهتم بها العلم الحديث، ومارس تجاربه عليها ، فأثمرت نتائج تؤكد أنه يمكن للبعض أن يؤثر بالحركة فى المادة الخارجة عن بدنه ، بالإرادة والإختيار .

وفى ذلك يصرح أحد الإختصاصيين (دكتور / شارلزا . موسى) فيقول : «(هناك شواهد متزايدة على أن وعينا الذى تمتد علاقته بالجسم إلى الجزئيات فى أجسامنا ، يمكن أن يؤثر فى الجزئيات الموجودة خارج حدود أجسامنا، بمعنى أنه يمكننا أن نحرك الأشياء دون أن نلمسها وبدون استخدام أدوات كهربية أو مغناطيسية أو أية أدوات أخرى فى هذه العملية . أى أننا قادرون على الحركة السيكوجية ، أو تحريك الأشياء من بعيد ، وفى السنة الماضية خصصت مجلة (نيتشر) — وهى المجلة العلمية المحترمة —

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

مقالا لبحث ظاهرة (يورى جيد)، الذى كان قادراً بشهادة شهود محترمين على ثنى ملاعق ومفاتيح وما إليها ، دون أن يلمسها) .

ويقول الأستاذ (ألكسندر دوبريف):(قد اكتشف أن الإنسان ، إذا مابذل جهدا عقليا خاصا ، يقدر على تحريك الأجسام عن بعد .

والبحوث الحديثه تقرر هذه الظاهرة ، وتمدنا بمعلومات أكثر تفصيلا عنها ، مستمدة من التجارب التى أجريت على أفراد يمتلكون هذا المجال بدرجة مكثفة) .

ويفسر (دوبريف) هذه الظاهرة عن طريق الجاذبية الحيوية ... فيقول : (من المعروف أن القوة الوحيدة القادرة على التأثير على أى جسم وتحريكه هى قوى الجاذبية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن (ه. فوروالد). قد فسر ظاهرة تحريك الأجسام عن بعد على أساس الجاذبية، بوجود مجال الجاذبية البيولوجية عند الإنسان .

بل افترض أن الطاقة اللازمة تتحرر من الكتلة ، بواسطة تأثير سيكولوجى حركى)». (١)

التنويم المغناطيسى :

يعرض لنا التنويم المغناطيسى « أمثلة كثيرة لانصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد ، لإثبات الاتصال العقلى ...» لأن النائم يتلقى عن منومه صورا لايتأتى تعليلها بالإشعاع، أو ماشابهه من التيارات المادية . وكثيرا ماتكون الوسائل المغناطيسية قائمة على تخيل لا وجود له فى عالم الحس ، ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم ، لأن المنوم لقنه وأمره بتلقيه وتصديقه ،

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ وراجع تفاصيل أكثر فى ص ١٧٨ وما بعدها .

وهو يرى مافى خيال المنوم، ولا يرى مافى خيال غيره، ولو كان معه فى حجرة واحدة »[1].

ففى التنويم المغناطيسى، يحصل اتصال عقلى بين المنوِّم والمنوَّم، بعيد عن أى ارتباط بالمادة، سواء كانت ذبذبات أو إشعاعات أو أجساما مادية، داخل أو خارج الجسمين محل التجربة، مما يؤكد تزحزح الحواس عن أن تكون أداة المعرفة الوحيدة، وانتفاء المادة كأداة يفسر بها الإدراك والوعى.

الإطلاع على المستقبل:

وهى ظاهرة نفسية «غريبة، لم تثبتها تجربة علمية، قابلة للتكرار، ولكننا لانملك القطع باستحالتها، لأن الذى يجزم باستحالة الإطلاع على المستقبل عليه:

أولا: أن يجزم بالصورة الصحيحة للزمن، ويجزم بأنها لاتوافق الإعتراف بوجود المستقبل على وجه من الوجوه.

وعليه ثانيا: أن يجزم باستحالة العقل الأبدى، واستحالة الإيحاء منه إلى العقول الإنسانية.

وعليه: أن يقيم الدليل على هذا المستحيل أو ذاك.. ولا دليل »[2].

بعد الإشارة إلى كل هذه الظواهر النفسية والملكات، وهناك غيرها نقول: إنها تنبىء علميا عن طاقات تتجاوز الوعى الحسى. وقد وجدت

(١) الفكر المادى الحديث ...، ص ٥١١.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لها اعترافا من بعض مدارس علم النفس الحديث، من مثل مدرسة علم النفس التحليلى، حيث نرى أحد مؤسسيه وهو (أدلر يونج)، يبين «أنه لا يستطيع علم النفس أن يكون علما كاملا فى جهوده لفهم الإنسان، إن لم يضع فى حسابه كل أنواع الظواهر السيكوترونية.

وهناك علماء نفس الأعماق، الذين يدرسون الظواهر الروحية. وقد أكدوا على عوامل اللاشعور بين غيرها من العوامل »[1].

وفى ضوء كل ذلك. يثبت أنه «مما لانزاع فيه: أن حق الفكر الإنسانى فى قبول هذه الظواهر أرجح جدا من حقه فى انكارها، والبت باستحالتها كأنها شىء لا يتأتى وقوعه بحال من الأحوال، فلا استحالة فى ظاهرة من هذه الظواهر، غير مستثنى منهما النادر المستغرب بالغا مابلغ من الندرة والغرابة فى جميع الأزمان.

وهذه الظواهر كلها — أغربها وأقربها معا — دخلت حديثا فى متناول البحوث العلمية وأن العلماء يتخذون منها شيئا فشيئا مواقف من العطف والفهم، أقرب من مواقفهم الأولى فى مطلع الثورة العلمية على سلطان رجال الدين »[2].

إنه لإنتصار واضح للعلم وللدين وللفلسفة الميتافيزيقية، أن «أدت التجارب العلمية إلى الإعتراف بقوى فى الإنسان وراء الحواس، يمكن أن تحصل على معرفة صحيحة »[3].

ومن ثم فإن القولة السليمة فى مسألة قصر المعرفة الحقة على الحواس

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر ...، ص ١٨٣.
(٢) الفكر المادى الحديث ...، ص ٥١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٤.

هى أنه ما أضيق « النطاق الذى بقى للحس الظاهر من أسرار الوجود، وما أحرانا أن نفسح للوعى الكونى وللبداهة مجالا يتسع مع الزمان، ولا نحسبه فى نطاق يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحسبان.

نقول بعد ذلك: إن وسيلة المعرفة يمكن أن تكون الحواس، كما يمكن أن تكون العقل، كما يمكن أن تكون الوعى الكونى أو الإلهام أو مايجرى مجـــراه، ونحصل على اليقين من كل ذلك، إذا اقتصرنا فى استعمال كل وسيلة فى حدود طاقتها، التى لايجوز أن تتعداها.

ومرت على الإنسان دهور طويلة فيما مضى من الزمن إلى أيامنا هذه يحس بأن لديه معرفة يقينية، وأن حواسه وعقله ودينه تعطيه هذا اليقين».(١)

فإن يأت الماديون لينزعوا اليقين من كل ماعدا الحواس، فلن يكون له من تفسير، إلا أنهم لم يقرؤا التاريخ الصحيح للفكر والمعرفة الإنسانيين، فغفلوا بذلك عن حقيقة مادية، أوقعتهم فى مأزق الجهل والإلحاد.

هذا وبالله التوفيق ؟

(١) المصدر نفسه، ص٥١٤، ٥١٥.

مصادر البحث

مرتبة أبجديا حسب العنوان

١ — الإسلام والتيارات المعاصرة، دكتوران / عبد المعطى محمد بيومى، أحمد عبد الحميد الشاعر.

٢ — الإسلام يتحدى. وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان.

٣ — تمهيد للفلسفة، د / محمود حمدى زقزوق.

٤ — الثقافة الإسلامية المستوى الأول، الشيخان عبد الرحمن حبنكة، محمد الغزالى.

٥ — حوار بين الفكر المادى والفكر الدينى، أحمد زكى تفاحة.

٦ — حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية، العدد الخامس ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٧ — دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق د / محمد أحمد مصطفى وآخرون.

٨ — الدين فى مواجهة العلم، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان.

٩ — العقيدة الإسلامية رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة، الجزء الأول — الالهيات د / سعد الدين السيد صالح.

١٠ — الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه د / محمود عبد الحكيم عثمان.

١١ — الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنترميد، ترجمة د / فؤاد زكريا.

١٢ — فى مواجهة الالحاد المعاصر وعقائد العلم د/ يحى هاشم حسن فرغل .

١٣ — القلق الإنسانى مصادره تياراته علاج الدين له د/ محمد إبراهيم الفيومى .

١٤ — كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة ، عبدالرحمن حسن حبنكة .

١٥ — الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة من العلماء الإمريكيين .

١٦ — الله ، عباس محمود العقاد .

١٧ — الماركسية فى مواجهة الدين حقائق ووثائق ، د/ عبدالمعطى محمد بيومى .

* * *